دراسات جمالية إسلامية
«٣»

التربية الجمالية في الإسلام

تأليف
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَبَعْـد

الظاهرة الجمالية في هذا الدين، بناء متكامل، يشد بعضه بعضاً في تناسق وتنظيم بديع، إنها ليست فلسفة فردية استحسنها الآخرون فأضحت مذهباً. ولا مذهب مدرسة فكرية تعاونت العقول على إنتاجها فأضحت فلسفة مذهبية.

إنها كيان قائم في ذاتية هذا الدين تدخل في لحمته وسداه. يظهر من خلال اللون والشكل، ومن خلال التناسق والتنظيم ومن خلال المواءمة والتعاون.. فكل ما يأمر به هذا الدين يوصل إلى الجمال.

وقد وضعنا ــ بحمد الله تعالى ــ في الجزء الأول من هذه الدراسة، القواعد الكلية لهذه الظاهرة، ثم انتقلنا في الجزء الثاني إلى بيان عملي تناولنا فيه الحديث عن جمال الكون وجمال الإنسان وجمال الفن. وها نحن في الجزء الثالث نتحدث بشكل عام عن التربية الجمالية من خلال حديثنا عن جماليات المنهج الذي وضع لتربية هذا الإنسان.

وبهذا تستكمل حلقات هذه الدراسة، التي كان الباعث عليها آية في كتاب الله الكريم، وكان المصدر والمرجع الأهم هو كتاب الله تعالى.

وإن كان هناك من شيء نسجله في مقدمة هذا الجزء ــ باعتباره الجزء الأخير من هذه الدراسة ــ فهو أن نحمد الله تعالى، أن يسر لنا وضع الصوى والمعالم على طريق الدراسة الجمالية في الإسلام فأضحى السير فيها ميسراً.

قد يكون هناك عقبات لم تذلل،.. وقد يكون هناك أخطاء.. ولكن تلك هي طبيعة العمل الإنساني وبخاصة إذا كان في دور التأسيس...

وقد جاء هذا الجزء في ثلاثة أبواب، وباب رابع جمعت فيه بعض اللوحات الجمالية لتكون نماذج من جماليات هذا الدين. وأما الأبواب فهي:

الباب الأول: التربية الجمالية.

الباب الثاني: التشريعات الجمالية في المنهج الإسلامي.

الباب الثالث: الإحساس بالجمال.

والله المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصاً له، إنه نعم المجيب. والحمد لله رب العالمين.

ذو القعدة ١٤٠٧

تموز ١٩٨٧

صالح احمد الشامي

الباب الأوّل

التربية الجمالية



الفصل الأول
التربيّة

- التعريف بالتربية.
- التربية الإسلامية.



التعريف بالتربية:

تطلق كلمة «التربية» على الإجراءات العملية التي تتخذ في سبيل تغيير السلوك وتوجيهه نحو الغاية والأهداف المطلوب تحقيقها في ذات الإنسان، وفي مجتمعه من خلاله.

ولا بد لكل تربية من فلسفة تستند إليها، وتنطلق منها، وهذه الفلسفة هي التي تحدد الهدف وترسمه.

ومن هنا كانت العلاقة وثيقة بين التربية والفلسفة، وهذا ما أكده العاملون في هذا الميدان.

يقول «جون آدمز»: «إن التربية هي المظهر الفعال للفلسفة، بمعنى أنها الجانب التطبيقي والوسيلة العملية لتحقيق المثل العليا».

ويقول «جيمس. س. روس»: «إن العلاقة بين الفلسفة والتربية وثيقة، حتى ليمكن القول: إنهما مظهران مختلفان لشيء واحد، أحدهما يمثل فلسفة الحياة، والآخر: طريقة تنفيذ تلك الفلسفة في شؤون الإنسان»[1].

ولا نجد في كتب التربية هدفاً واضحاً تسعى إليه تلك النظريات بحيث يكون متفقاً عليه فيما بينها، فلكل تربية هدفها الذي ترى فيه تحقيق ما تصبو إليه فلسفتها، ومن هنا كان تعدد الأهداف أمراً واقعاً لا مفر منه.

يقول «برسي نن» في كتابه (الأسس العامة لنظريات التربية):

«يرى البعض أن الغرض من التربية هو تكوين الأخلاق، بينما يرى آخر: أنه الإعداد للحياة الكاملة، ويقول ثالث: إن غرضها تكوين العقل السليم في الجسم الصحيح، وهكذا يمكن أن نمضي في سرد سلسلة طويلة من هذا النوع، ويبدو

(١) انظر في هذه الأقوال كتاب (أصول التربية الإسلامية) لمؤلفه: سعد جنيدل. ص ٢٩.

للقارىء من أول وهلة أن كل غرض من هذه الأغراض صحيح أو مقنع في حد ذاته، ولكن إذا أمعنا النظر في هذا الأمر وتساءلنا على أي نوع من الأخلاق نريد أن نكون؟ أو ما صفات العقل السليم؟ أو ما أنواع النشاط التي تتضمنها الحياة الكاملة؟ اتفقنا و «كيتنج» الذي قرر بصفة قاطعة: أن من الصعب تعيين غرض عام للتربية، وأن ما يبدو من نجاح هذه المحاولات لتحديد غرض عام للتربية ليس إلا وهماً خاطئاً سببه الرئيسي هو أن كل واحد يستطيع أن يؤول هذه الأغراض حسبما شاء داخل نطاق واسع الحدود، فمثلاً: فكرة زيد عن الأخلاق المثالية، ربما كانت مضحكة أو محتقرة عند عمرو، وما يعتبره شخص ثالث حياة كاملة بالنسبة له، ربما اعتبره موتاً ثقافياً، وما قد يظنه آخرون عقلاً سليماً في جسم صحيح، ربما اعتبره غيرهم عقلاً غراً في جسم همجي، على أنه يمكن الوصول بسهولة إلى مصدر هذا الخلاف، فكل نظام تربوي يقوم على فلسفة عملية خاصة تتصل بالحياة اتصالاً وثيقاً، ولما كان كل غرض تربوي محسوس يرمي إلى تحقيق مثل أعلى، ولما كانت المثل العليا للحياة دائمة التغير والاختلاف، فانتظر صراعاً دائماً يظهر في نظريات التربية»[1].

على أن الأمر لم يتوقف عند عدم الاتفاق على الغرض والهدف، بل تجاوزه إلى الاختلاف على «مفهوم التربية» ذاته، وقد تناول الدكتور مقداد يالجن هذه النقطة في حديثه فقال:

«وأما عن مفهوم التربية في الاصطلاح العلمي، أي فيما يستعمل في ميدان الدراسات التربوية، فقد اختلف الفلاسفة والمربون في تحديده، وذلك وفقاً لاختلاف وجهات نظرهم في النظريات الفلسفية التي تتبعها النظريات التربوية، هذا هو أساس الاختلاف النظري.

أما اختلافهم من الناحية العلمية فيرجع ذلك أساساً إلى تركيز بعض المربين عند تحديد التربية على جانب منها أكثر من الجوانب الأخرى، وعلى ذلك يمكن إجمال وجهات النظر تلك، وتصنيفها إزاء تحديد أو تعريف التربية من الناحية العملية في مجموعات:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠-٣١.

الأولى: تركز ـــ عند تحديد طبيعة عملية التربية ـــ على أنها طرق ووسائل لتنشئة الطفل وتكوينه وتكميله على النحو المراد...

الثانية: تركز على الهدف الخارجي للتربية أكثر مما تركز على طبيعة العملية التربوية، كطريقة وأسلوب التربية...

الثالثة: تركز على طبيعة العملية التربوية كعلم أو كفن أو كـ (بيداغوجيا)[1]. ثم اختلفوا في معنى الفن والبيداغوجيا ومعنى عملية التربية..»[2].

* * *

تبين لنا مما سبق أن علماء التربية الحديثة لم يتفقوا على مفهوم التربية كما أنهم لم يتفقوا على الغرض والهدف، الأمر الذي يفتح الباب لكثرة النظريات، وتعدد الآراء.

ولكنهم ـــ والحق يقال ـــ وإن اختلفوا فيما سبقت الإشارة إليه، فإنهم متفقون على:

ـــ ان الطفل هو ساحة عمليات التربية، وهو موضوعها.
ـــ وأن المدرسة هي مكانها.
ـــ وأن المعلمين هم المربون المطبقون لتلك النظريات على مسرح الأحداث.

تلك هي معالم التربية الحديثة.. في خلاصة مقتضبة.

التربية الإسلامية:

تختلف التربية الإسلامية عن التربية الحديثة اختلافاً بيناً، من حيث المنطلق والغاية والوسيلة..

---

(١) البيداغوجيا = علم التربية، يقول: «دوركايم عن البيداغوجيا بأنه نوع التفكير الذي يعتمد على تنظيم الحقائق ودعمها بالوثائق ما أمكن بحيث يتهيأ له أن يكون في خدمة من يمارسون التعليم.

(٢) التربية الأخلاقية الإسلامية. تأليف: د. مقداد يالجن ص ٥١-٥٣. ط ١. مكتبة الخانجي بمصر.

فالتربية الإسلامية هي: عملية تقويم وتوجيه لسلوك الإنسان هدفها تطبيق المنهج الإلهي، بالاستعانة بالوسائل والطرق التي حددها المنهج نفسه(١).

□ وعلى هذا، فالتربية الإسلامية «تقويم وتوجيه» وليست عملية «تغيير»، ذلك أنه من مقررات المنهج الإسلامي: أن كل مولود يولد على الفطرة(٢). وواضع المنهج هو العليم بهذه الفطرة ــ سبحانه وتعالى ــ وليس من مهمة المنهج مصادمة الفطرة، بل الأخذ بيدها لسلوك الطريق السوي، حينما تعترضها العوائق التي قد تحرفها عن سلوك ذلك الطريق.

والتوجيه والتقويم يكلف جهداً أقل بكثير من الجهد الذي يبذل في عملية التغيير.

□ والتربية الإسلامية تستند إلى منهج واضح المعالم، لا يقوم على نظريات، بل يقوم على حقائق، وقد تناول هذا المنهج الإنسان كله، فكراً وروحاً وجسماً، ظاهراً وباطناً.. في توازن وتناسق، بحيث لا يطغى جانب على آخر، مع مراعاة كل ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار.

وبهذا تتمكن التربية الإسلامية من الهيمنة على نشاط الإنسان كله، النشاط المادي والنشاط المعنوي..

□ وهدف هذه التربية هو إعداد «الإنسان الصالح»(٣).

---

(١) عرف الدكتور مقداد يالجن التربية الإسلامية بقوله: «هي تنشئة الطفل وتكوينه إنساناً متكاملاً من جميع نواحيه المختلفة. من الناحية الصحية والعقلية والروحية والأخلاقية في ضوء المبادىء التي جاء بها الإسلام وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بينها» التربية الأخلاقية الإسلامية ص ٥٤ ويلاحظ في هذا التعريف التركيز على الطفولة. سيراً مع طرق التربية الحديثة.

(٢) جاء في الحديث قوله ﷺ: ﴿ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه﴾ رواه البخاري.

(٣) يلتقي الذين كتبوا في التربية الإسلامية على هذا المعنى وإن اختلف أسلوبهم في التعبير. ومما ذكروه: «الإنسان الخير» و«الإنسان السعيد» ويذهب الأستاذ عبد الرحمن الباني في كتابه (مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام) ص ٦٩ إلى أن: «تحقيق العبودية لله تعالى في حياة الإنسان على مستوى الفرد والجماعة والإنسانية هو هدف التربية النهائي وغايتها».
وهو في هذا يلتقي مع اعداد الإنسان الصالح.

وهي بهذا ترفض الوقوف عند حدود الأرض، فلا تقبل فكرة «المواطن الصالح» كما ترفض الوقوف عند حدود اللون والجنس. فلا تقبل أيضاً فكرة «الفرد الصالح» [١].

إنه التعامل مع هذا الإنسان باعتباره عبداً لله، يرى في الناس كل الناس عبيداً لله، وعلى هذا، فلا تحده الحدود ولا يتقلص في نفسه عامل الخير فيصبح قاصراً على لون أو جنس [٢].. إنه الإنسان الذي يسعى لخير كل إنسان.

وصلاح هذا الإنسان منوط بمدى ما يلتزم به من التقوى.

□ وموضوع هذه التربية هو «الإنسان» صغيراً كان أم كبيراً، ــ وليس الطفل وحده ــ فخاصية هذه التربية أنها تهتم بالإنسان منذ الولادة وحتى الموت. وما يزال الإنسان في كل مراحل حياته قابلاً للإصلاح والتوجيه والارتقاء. حتى يصل إلى درجة «الحب» التي نص عليها الحديث الشريف [٣]. وعندئذ يصل إلى التقوى التي حرص الإسلام على صبغ أفراده بها (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [٤].

وأما قصر التربية على مرحلة الطفولة، فذلك قصرٌ لها، وتحديد لفاعليتها، ونحن لا ننكر أن هذه المرحلة هي المرحلة المهمة، والتي عليها المعول، ولكنا لا نريد إلغاء أثر التربية في المراحل الأخرى.

□ ويترتب على ذلك أن المدرسة لن تكون هي الميدان الوحيد لعملية التربية،

---

(١) يقول الأستاذ محمد قطب: تلتقي مناهج التربية الأرضية على أن هدف التربية هو إعداد «المواطن الصالح» وتختلف الأمم بعد ذلك في تصور هذا المواطن وتحديد صفاته قد يكون هو الجندي.. وقد يكون الرجل الطيب.. [منهج التربية الاسلامية ص ١٣-١٤].

(٢) يقول الأستاذ محمد قطب: التربية الانكليزية تنشىء الفرد على كثير من الفضائل، لا يسرق ولا ينهب، ولا يغتصب ولا يكذب، ولا يغش... كل ذلك في حدود بريطانيا. فإذا انتقل هذا الرجل الانكليزي قيد شبر خارج الحدود البريطانية. خارج الوثن الذي ربي على عبادته.. فهنا يفجؤك منه شخص آخر لم تعهده من قبل. الأنانية البغيضة والجشع... [منهج التربية الإسلامية ص ٤٠].

(٣) جاء في الحديث (.. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه..) رواه البخاري.

(٤) سورة الحجرات. الآية [١٣].

بل يشاركها في ذلك وبشكل فعال: الأسرة في البيت، ويشاركها أيضاً المسجد..

إن للأسرة وللبيت المكانة الأولى في العملية التربوية، وما المدرسة إلا المساعد في جانب من جوانب هذه العملية[1]، ويأخذ المسجد دوره على نطاق فعال، فصلة المسلم به يومية بل ولعدة مرات في اليوم الواحد.. وللتناصح بين المسلمين دوره أيضاً..

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من توسيع دائرة التربية، أن التاريخ الإسلامي سجل لنا، وفي كل مراحله، أسماء لامعة في هذا الميدان، عرفوا بالمربين من أمثال: الحسن البصري، والجنيد، والغزالي، وابن الجوزي..

لقد كان لهؤلاء وأمثالهم ـــ رحمهم الله ـــ الأثر الكبير في التربية، تربية الكبار على نطاق واسع.

□ وتعدد مؤسسات التربية الإسلامية ـــ من أسرة ومدرسة، ومسجد... ـــ تبعاً لمراحل حياة الإنسان، لا يوقع تناقضاً أو تعارضاً بينها، ذلك أن جميع هذه المؤسسات تلتقي على هدف واحد، كما أنها تنتمي إلى منهج واحد، يضبط لها هذا الهدف ويرسم الخطوات إليه.

هذا الأمر الذي لم يكن مشكلة في التربية الإسلامية، يعد معضلة كبرى في التربية الحديثة، وذلك لعدم اتفاق هذه المؤسسات على الهدف والغاية. يقول الدكتور نبيه يس: «والأمر الذي لا جدال فيه أننا لا نعرف حتى الآن أهدافاً واضحة محددة لرسالة الأجهزة التربوية غير المدرسة[2]، فكافة هذه الأنظمة تمضي مؤدية لرسالتها دون استناد إلى موجهات محددة وهذ الموقف يرجع لأسباب عدة...»[3].

ثم يوضع لنا الدكتور نبيه يس ما يترتب على ذلك فيقول: «وهكذا أصبحنا

(١) يقول (الكسيس كاريل): لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً. [الإنسان ذلك المجهول ص ٣٠٥].

(٢) والمدرسة نفسها غير متفق على هدفها، فكل فلسفة تسخر مدارسها في سبيل ما ذهبت إليه من أهداف.

(٣) أبعاد متطورة للفكر التربوي. تأليف د. نبيه يس ص ٢٩٧-٢٩٨ الناشر مكتبة الخانجي بمصر.

نواجه موقفاً جديداً يتميز بالصعوبة، ذلك أن تحقيق التناسق بين كافة العوامل المؤثرة في نمو الطفل لا يعد أمراً هيناً، خاصة إذا أدركنا أن مؤسسات الثقافة الحرة تدفعها موجهات معينة في عملها تكون متعارضة تماماً مع الخط التربوي السليم..» [(١)].

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٩-٣٢٠.



الفصل الثاني
التربيَّة الجَمَاليَة

- □ مفهوم التربية الجمالية.
- □ التربية الجمالية في الإسلام.
- □ موضوع الكتاب.



تعرفنا في الفصل السابق على «مفهوم التربية» ونخطو في هذا الفصل خطوة أخرى باتجاه ما قصدنا إليه، في هذه الدراسة، فنتعرف على التربية الجمالية.

مفهوم التربية الجمالية:

إن مفهوم «التربية الجمالية» هو حصيلة لقاء بين «التربية» وبين «علم الجمال».

أما مفهوم التربية فنحن قريبو عهد به.

وأما مفهوم علم الجمال، فهو قاصر على الجمال الفني [1].

وبناء على هذين المفهومين فإن التربية الجمالية تعني: تلك الطرق والوسائل التي تتخذها الإدارة التعليمية لتنمية الحس الجمالي لدى الطفل من خلال العمل الفني.

وإذن: فالتربية الجمالية إنما يتوصل إليها من خلال التربية الفنية التي تعتمد على دروس الرسم والنحت والموسيقى...

ويحدد «هربرت ريد» [2]، بوضوح كامل، مجال هذه التربية في النواحي التالية:

(ا) التربية البصرية: العين =	التصميم	
(ب) التربية التشكيلية: اللمس =		
(ج) التربية الموسيقية: الأذن = الموسيقى	الحركة الإيقاعية	
(د) التربية الحركية: العضلات = الرقص		

(١) انظر (الظاهرة الجمالية في الإسلام) ص ٢٤-٢٥.

(٢) «هربرت ريد» (١٨٩٣-١٩٦٨) شاعر وناقد إنجليزي. عكف على خدمة النقد الأدبي وعلم الجمال.

(هـ) التربية اللفظية: الكلام = الشعر والدراما
(و) التربية الإنشائية: الفكر = الصنعة [1].

ولا يكتفي «هربرت ريد» بتحديد مجال التربية الجمالية، بل يحدد لنا وظيفتها، وهي: التوفيق بين الحِواس وما حولها من بيئة موضوعية [2].

ومهما يكن من أمر فإن هذه التربية تتميز بأمرين:

فهي جزء من العملية التربوية التي تقوم بها الجهات التعليمية.
والوصول إليها إنما يكون عن طريق التربية الفنية.

التربية الجمالية في الإسلام:

إن التربية الجمالية في الإسلام هي أيضاً حصيلة لقاء بين التربية في مفهومها الإسلامي، وبين الجمال في مفهومه الإسلامي.

وقد تحدثنا عن التربية الإسلامية في الفصل السابق، أما الجمال في المفهوم الإسلامي فهو يتجاوز حدود الجمال الفني إلى الجمال الكوني والجمال الإنساني [3]..

وللتعرف على هذه التربية ينبغي لنا أن نتعرف على خصائصها المميزة التي تشكل الخطوط العريضة المبينة لها.

□ ليس هناك تربية إسلامية جمالية منفصلة عن بناء التربية الإسلامية العامة، بل إن التربية الجمالية داخلة في كيان التربية العامة فهي سمة من سماتها وخاصة من خصائصها، فالجمال في الأصل ــ كما رأينا ــ لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره.. وعلى هذا فكل تربية إسلامية هي تربية جمالية.

---

(١) التربية عن طريق الفن. تأليف: هربرت ريد. ترجمة عبد العزيز جاويد ص ١٦ سلسلة الألف كتاب.
(٢) المرجع السابق ص ١٤.
(٣) انظر تفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذه الدراسة «ميادين الجمال في الظاهرة الجمالية في الإسلام».

□ تحقيق المنهج الإسلامي غاية التربية، والجمال سمة من سمات هذا المنهج: سمة فيما يهدف إليه، وسمة في الوسيلة التي يتخذها للوصول إلى الغاية المنشودة. وعلى هذا فتحقيق المنهج غاية ووسيلة يحقق الجمال تلقائياً.

□ إن كلاً من التربية والجمال.. يرتبط بالمنهج، واذن فهناك مقياس يرجع إليه حين تصاب المفاهيم بالخلل، ويصبح القبح جمالاً..

□ والتربية الجمالية في الإسلام: من خصائصها العموم والشمول. فهي تربية تتناول جميع المسلمين.. أو كل من التزم بالإسلام، كما أنها تمتد عبر حياته كلها وليست قاصرة على مرحلة من مراحل العمر، وهي تصبغ نفس الإنسان بصبغتها وهي بالتالي تجمّل جميع نشاطاته، ولا تكون قاصرة على جانب واحد منها.

وبهذا يصبح للجمال اعتباره في نظر الناس جميعاً، وليس في نظر طائفة منهم، كما يدخل إلى كل الميادين التي يمتد إليها النشاط الإنساني.

□ وبهذه الخصائص يمكن الحفاظ على التوازن في المنهج التربوي فلا يتضخم اهتمام بنشاط، على حساب هزال يصيب نشاطاً آخر. بل ويقوم التوازن في النشاط الجمالي ذاته، فلا يكون الاهتمام بالجمال الحسي ـ مثلاً ـ على حساب الإهمال الذي يصيب الجانب المعنوي.

نخلص من هذا إلى أنه ليس هناك مفهوم خاص بالتربية الجمالية الإسلامية يختلف عن المفهوم العام للتربية الذي سبق الحديث عنه. ويلمح الوجه الجمالي من ذكر الهدف الذي هو تطبيق المنهج الإلهي.

موضوع الكتاب:

قد يكون من المهم التعرف على موضوع الكتاب قبل المضي فيه، وكتابنا هذا ليس كتاباً في التربية ـ كما قد يفهم من العنوان ـ ولكنه كتاب في الجمال.

ونستطيع القول بتعبير آخر: إنا لا نريد «بالتربية» هنا المعنى الاصطلاحي الذي سبق ذكره. وإنما نريد أن نبين أن المنهج الإسلامي المراد تحقيقه في كيان الإنسان المسلم يتضمن تلقائياً تحقيق المعنى الجمالي في هذا الميدان. ففي أي كلية أو جزئية يُنشّأ عليها الفرد، جمال يتناسب مع حجمها، وعلى هذا فكلما كان

الإنسان أكثر التزاماً بهذا المنهج، كلما كان أكثر إحساساً بالجمال، وكان أكثر تحقيقاً له في ذات نفسه وفي الواقع من حوله، وبتعبير آخر أكثر عطاء له.

وإذن فلسنا بحاجة إلى إجراءات خاصة لإيقاظ الحس الجمالي وتربيته لدى الإنسان، لأن المنهج يضمن تحقيق ذلك وبنسبة عادلة من خلال تربيته العامة.

ولذا فنحن في بحثنا هذا سنحاول إلقاء الضوء على الجوانب الجمالية في تعاليم هذا المنهج، حتى يتبين أن الجمال أمر مقصود، بل حتى يتضح كيف أن الجمال هو السمة البارزة التي تشد الأنظار إليها، كما هو شأن الجمال حيث وجد.

إن الآثار الجمالية للتربية الإسلامية ستظهر أوضح وأوضح كلما مضينا في تطبيق المنهج الكريم..

فلنتعرف على بعض هذا الجمال من خلال الفصول القادمة..

الفصل الثالث
المؤيدات

- «إن الله جميل يحب الجمال» .
- خط عام في المنهج .



حب الجمال أمر فطري، قائم في بنية النفس الإنسانية[1]، ويعتبر وجوده دليلاً على سلامة الطبع وصحة الذوق واستقامة الفطرة. ولذا فهو لا يحتاج إلى تعهد ورعاية، أو لنقل: إنه لا يحتاج إلى كبير عناء في تعهده ورعايته.

ومع ذلك فإن المنهج الإسلامي، تقديراً منه «للجمال» وارتفاعاً بمنزلته إلى المكانة اللائقة به، قد عزز في النفس الإنسانية هذه المكانة بما أيده به من تكريم وتشريف، فكان وصفاً للعظيم الجليل ــ سبحانه ــ وكان محبوباً له، وكفى بهذا منزلة.

وفي هذا الفصل نحاول الوقوف على بعض تلك المؤيدات[2]، التي تعزز القيم الجمالية في النفس الإنسانية، والتي سجلها المنهج الكريم فأعطاها بذلك الأصالة والعراقة، فليست مستعارة من هنا وهناك، وليست مقتبسة من فلسفة أو علم جمال.. وأنى للفلسفة أو علم الجمال.. وكل المعارف الإنسانية أن تأتي بما جاء به من لا ينطق عن الهوى.

والمنهج الإسلامي إذ يضع هذه المؤيدات، إنما يؤكد رعايته للجمال وعنايته به، كما يبرهن على كمال هذا المنهج، وما هو بحاجة إلى برهان بعد قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾[3].

إن الله جميل يحب الجمال:

جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يدخل

---

(١) سبق الحديث عن فطرية الإحساس بالجمال في الجزء الأول من هذه الدراسة (الظاهرة الجمالية في الإسلام) ص ١٤٧-١٥٠.

(٢) سبقت الإشارة إلى هذه المؤيدات في الجزء الثاني من هذه الدراسة (ميادين الجمال) ولكنا نوردها هنا بشيء، من التفصيل لارتباطها الوثيق بالموضوع.

(٣) سورة المائدة الآية [٣].

الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس﴾[1].

وللحديث في صحيح الجامع الصغير أكثر من رواية منها:

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس﴾.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها﴾.

وللحدث روايات أخرى كلها تتفق على قوله ﷺ ﴿إن الله جميل يحب الجمال﴾[2].

وهذا الجزء من الحديث يقرر أمرين:

- وصف الله تعالى بالجمال.
- حبه سبحانه وتعالى للجمال.

ونترك الكلام عن الأمر الأول لابن القيم رحمه الله: قال:

«من أعز أنواع المعرفة، معرفة الرب ـ سبحانه ـ بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله، سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته...

---

(١) الحديث من رواية مسلم وأبي داود والترمذي. انظر جامع الأصول ج ١٠ رقم الحديث ٨٢١٠. وهو عند مسلم في كتاب الإيمان: باب تحريم الكبر ٩٣/١.

(٢) ومن هذه الروايات ما جاء في مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿ما من رجل يموت حين يموت، وفي قلبه مثقال حبة من خردل من كبر تحل له الجنة أن يريح ريحها ولا يراها. فقال رجل من قريش، يقال له أبو ريحانة: والله يا رسول الله إني لأحب الجمال وأشتهيه حتى إني لأحبه في علاقة سوطي، وفي شراك نعلي، فقال رسول الله ﷺ: ليس ذاك الكبر، إن الله عز وجل جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس بعينيه﴾المسند ١٥١/٤ و١٣٣-١٣٤.

ومن أسمائه الحسنى: «الجميل».

وجماله ــ سبحانه ــ على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء.

فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله حكمة ومصلحة وعدل ورحمة.

وأما جمال الذات، وما هو عليه، فأمر لا يدركه سواه، ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تَعرَّف بها إلى من أكرمه من عباده..

قال ابن عباس: «حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال».

فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال، وستر بنعوت العظمة والجلال؟!

ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات» (١).

وأما الأمر الثاني، وهو حبه سبحانه وتعالى للجمال، فقد شرع للإنسان كل ما يوصله إليه، من نظافة في الظاهر والباطن، ومن تجمل كذلك في الظاهر والباطن، فإذا ما طبق الإنسان ما شرعه الله له، فإنه يأخذ بأسباب الجمال وعندئذ يكون محبوباً لله تعالى.

ونعود إلى ابن القيم، رحمه الله، ليوضح لنا هذا الجانب:

«إن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك.

فيعرف الله ــ سبحانه ــ بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء.

ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده

---

(١) انظر كتاب (الفوائد) لابن القيم ص ٢٣٤-٢٣٦ طبعة دار النفائس. بيروت.

أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ، والشعور المكروهة..

فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه»[1].

نخلص من هذا إلى أن قوله ﷺ: ﴿إن الله جميل يحب الجمال﴾ يعد أكبر باعث للمسلم وحافز له، يدفعه لتلبية وتنفيذ ما يحبه الله تعالى فيسعى إلى تحقيق الجمال في كل شيء يتصف به ضمن حدود طاقته.

وبهذا يكون سعينا تلبية للفطرة، وتحقيقاً للعبادة، وذلك الوئام نوع آخر من الجمال.

خط عام في المنهج:

إن النظرة الكلية الشاملة المتفحصة في المنهج الرباني تتيح لنا رؤية خط واضح يمر عبر كل الأوامر والتوجيهات، ليعطيها حظها من الجمال، ثم يستكمل مهمته فيصور لنا جمالية المنهج من خلال خط سيره العام.

إننا ما نكاد نقف على أمر أو توجيه إلا وللجمال فيه نصيب، قد ندرك ذلك مباشرة، وقد يحتاج إدراك ذلك، في بعض الأحيان، أن نرجع الأمر إلى أصوله وكلياته حيث يتبين لنا خط سير الجمال فيه.

ويظهر هذا جلياً في أوامر القرآن المتكررة التي تحض على إحسان العمل، وإحسان القول، كما تحث على العمل الصالح.. وما الإحسان والصلاح إلا بعض رعية الجمال.

وكذلك نجد الخط نفسه في السنة، ونسوق بعض الأمثلة على ذلك:

جاء في الحديث قوله ﷺ: ﴿إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه﴾[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٠.

(٢) الحديث في صحيح الجامع الصغير، وقال عنه: حديث حسن، وهو من رواية البيهقي.

وإتقان العمل هو الوصول به إلى أحسن حال ممكنة، وعندها يتحقق الجمال فيه، ومن المعلوم أن كل جمال بحسب الشيء الذي يجمله. فقد يكون في الحركة، وفي العمل، وفي الشيء المنتج..

إن الوصول إلى الإتقان، يعني المرور بمنزلة الجمال، والحديث هنا عام يتناول كل عمل يقوم به الإنسان، ولقد وجدنا رسول الله ﷺ يطبق هذا عملياً.. في بناء المسجد النبوي، كان طلق بن علي اليماني أحد المشاركين، وكان يحسن خلط الطين، فلما أراد أن يشارك في عمل آخر قال ﷺ: «قربوا اليماني من الطين، فإنه أحسنكم له مساً، وأشدكم له سبكاً»[1].

إن إحسان العمل وإتقانه يكون في كل عمل حتى في خلط الطين.. وحين يؤدي كل عامل عمله بطريقة متقنة فإن الجمال هو الحصيلة الأكيدة.

وإذا تتبعنا الخط الجمالي في السنة[2] وجدنا أنه يصل إلى جوانب لم يصلها الجمال في يوم من الأيام قبل أن يحمله الإسلام إليها.

جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[3].

وهكذا يطلب المنهج الإحسان في كل شيء، ثم يعطي الأمثلة من ميادين لم تعرف الإحسان فيما مضى.

إن القتل والذبح كلاهما عملية سلب للحياة، وليس ضرورياً أن يصاحبهما تعذيب جسدي قبل ذلك، أو تصبح القتلة متعددة متكررة لسوء الآلة..

إن الخط الجمالي هنا وإن كان يمر في جانب الظل إلا أنه ضروري لاستكمال معالم اللوحة، إنه هنا إنما يرسم الرحمة في نفس الفاعل.

---

(١) ذكر صاحب فتح الباري هذا الحديث ١/٥٤٣ في شرح الحديث رقم ٤٤٨ وقال أخرجه الإمام أحمد.

(٢) ذكرنا هذا الجانب بالنسبة للقرآن الكريم في (الظاهرة الجمالية) تحت عنوان ميادين لم تعرف الجمال. ص ١٩٥-٢٠٢.

(٣) الحديث رواه مسلم وغيره.

«إن القتيل لن يستفيد شيئاً من أن تحسن قتلته، فهو مفارق الدنيا، والألم واقع به ماله عنه من محيص، فيستوى أن تحسن أو لا تحسن، أو أن الفارق في الحقيقة ضئيل.

فما القيمة العملية من إحسان القتل بالنسبة للقتيل؟ لا شيء بطبيعة الحال.

ولكن القيمة الكبرى، هي لك أنت، هي ان يكون لك قلب انسان.

ولكن الحديث لا يقف عند هذين الأمرين، الذبحة والقتلة، وإنما يسوقهما فقط على سبيل المثال.

وبسبب هذين المثالين، قد يغلب على الظن أن الرحمة وحدها هي المقصود من الحديث. ولكن الأمر ليس كذلك، فالمقصود هو «الإحسان» والرحمة صورة من صور الإحسان.

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء». والإحسان ــ هنا كما في الحديث ــ هو الأداء الحسن، الأداء الكامل، الأداء المتقن، الأداء الجميل» (١).

* * *

ونحب أن نتتبع هذا الخط الجمالي، في الأماكن التي قلما يتنبه إليها، فالدعاء صلة بين العبد وربه، يتوجه به إليه ويسأله ما يريد..

ولم تترك السنة موقفاً من مواقف الحياة إلا وسجلت فيه الدعاء المناسب، ذلك أن الدعاء هو العبادة بل هو مخ العبادة.

ونلمح بين تلك الأدعية الكريمة، ما نحن معنيّون به..

فالمنظر القبيح، والمنظر الكئيب،.. أمر غير مرغوب به، إنها مناظر ليس للبهجة والسرور فيها نصيب، وما ذاك إلا لفقدان الجانب الجمالي..

وترشدنا السنة إلى الاستعاذة من هذه المشاهد، فقد ورد في الصحيح قوله ﷺ: ﴿.. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر..﴾(٢) إنها

---

(١) من كتاب (قبسات من الرسول) لمؤلفه محمد قطب. فصل (وليرح ذبيحته).

(٢) الحديث رواه مسلم، كتاب الحج، رقم الحديث ٤٢٥.

والوعثاء: المشقة والشدة. والكآبة: تغير النفس من حزن ونحوه.

استعاذة بالله تعالى من الوقوف أمام منظر فيه الكآبة والحزن..

* * *

إنك مهما سرت في ظلال هذا المنهج ألفيت نفسك أمام ثمرات الجمال، دانية القطوف، سهلة التناول..

* * *

نكتفي بهذا القدر.

ونخلص إلى أن الإسلام عرف أن حب الجمال قائم في فطرة الإنسان، فسعى إلى تأييد هذه الفطرة في الاتجاه الصحيح. فكان الجمال بعض ما يلتزم به المسلم لأنه سمة قائمة في أوامر المنهج، فكل ملتزم بالإسلام لا بد أن يكون للجمال من نفسه نصيب..

ولم يكتف بهذا بل قوى مكانته بمؤيد آخر، كبير الأهمية، حين جعل الجمال محبوباً لله تعالى. فكل حريص على تنفيذ ما يحبه سبحانه عليه أن يسعى لتحقيق الجمال.

وكفى بها من مؤيدات دافعة إلى حب الجمال، وصنع الجمال..



الفصل الرابع
الجمال التربوي

- الجمال المقصود.
- الجمال التربوي في الإسلام.
- المقياس الجمالي.



الجمال المقصود:

إن الجمال الذي نتحدث عنه في هذا الكتاب، هو الجمال التربوي، أي الذي يمكن صنعه وإيجاده والسعي إليه. أي الجمال الكسبي[1].

وبتعبير أدق نستطيع القول بأن الجمال المقصود هنا هو ما يمكن التعبير عنه بـ «التجمل» أي طلب الجمال. إذ مهمة التربية أن توجه إليه وترغب فيه، وبالتالي يسعى الفرد في سبيل تحقيقه.

وقد نعبر عنه بـ (الزينة)، هذه الزينة التي تعني الاهتمام بالإنسان في جسمه وفي سلوكه وفي لباسه ومسكنه.. كما سيأتي إيضاح ذلك في الفصول القادمة.

الجمال التربوي والإسلام:

نستطيع القول بأن الأديان ــ غير الإسلام ــ لم تهتم بأمر الجمال، فبعضها لم يعر هذا الأمر أي اهتمام، وبعضها وقف في الطرف الآخر، فاعتبر القبح فضيلة، واعتبر النظافة خروجاً على أوامر الدين. وقد سبق لنا أن ضربنا بعض الأمثلة على ذلك[2].

والإسلام وحده هو الذي جعل من قضية الجمال أمراً دينياً، فقرر للجمال مكانته، وجعله ضمن الواجبات التي ينبغي على المسلم أن يسعى في تحقيقها.

بل إن القرآن الكريم يستنكر فعل أولئك الذين يحرمون اتخاذ الإنسان للزينة، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات

---

(١) لا علاقة للجمال الخَلْقي بموضوع التربية. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الجانب بالتفصيل في الجزء الثاني من هذه الدراسة (ميادين الجمال).

(٢) سبق الحديث عن ذلك في الباب الثاني من كتاب (ميادين الجمال).

من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة..﴾[١].

ولعل أكبر استنكار لذلك، هو أن الله سبحانه أضاف الزينة ـ في هذه الآية ـ لنفسه فقال: (زينة الله) وهذه الإضافة للتشريف والتكريم.

إن الذين لا يتخذون الزينة ولا يعتنون بلباسهم، وشكلم.. ويظنون أن هذا يقرّبهم من الله تعالى.. إنهم مخطئون.

إن الآية الكريمة تطالب المسلم باتخاذ الزينة في الحياة الدنيا، وقد يشاركه غير المسلمين في ذلك.. أما في الحياة الآخرة فالزينة خاصة بالمؤمنين تكريماً لهم.

والآية الكريمة بعد ذلك تقرر مبدأ عاماً في المنهج الإسلامي، وهو أن التجمل أمر يطلبه المنهج فهو فضيلة من الفضائل.

ولا يكتفي القرآن الكريم في تقرير هذا المبدأ بما سبق، بل تذهب آياته الكريمة إلى مدى أبعد، حيث تجعل «الجمال» و«القبح» أو «الطيب» و«الخبث» علة للتحليل والتحريم، فيصبح الجمال دليلاً على الحل، ويصبح القبح دليلاً على التحريم.

نلمح هذا واضحاً في قوله تعالى واصفاً رسوله الكريم ﷺ: ﴿يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾[٢]. والآية واضحة الدلالة تشير إلى أن الطيب علة التحليل، وأن الخبث علة التحريم، وما الخبيث في ميدان الطعام إلا القبيح والسيء، وما الطيب إلا الجميل[٣].

ويتأكد هذا المعنى في آيات كثيرة منها؛ قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[٤].

---

(١) سورة الأعراف. الآية [٣٢].

(٢) سورة الأعراف. الآية [١٥٧].

(٣) قال ابن كثير: وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين. ولا حجة لهم في ذلك. أقول: وهذا يدل على التعليل الذي ذهبنا إليه.

(٤) سورة المائدة. الآية [٩٠].

وقال تعالى:

﴿قل لا أجدا في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير، فإنه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به..﴾[1].

إن كلمة «رجس» في الآيتين تشير بوضوح إلى علة التحريم، والرجس هو: القذر والنجس. وهو القبيح، أي الوجه المقابل للجمال.

أرأيت ديناً يجعل الجمال والقبح علة في التحليل والتحريم؟ إنه الإسلام، فهل بعد ذلك من عناية بأمر الجمال؟!

إنه تدريب وتربية للمسلم من خلال النص القرآني، أن يستعين بالمقياس الجمالي في إتيان الأشياء أو الابتعاد عنها. ألم يطلب القرآن الكريم من المسلم ألا يرفع صوته بغير ضرورة؟ ثم كان التعليل لذلك هو «القبح» ولنستمع إلى النص الكريم:

﴿واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[2].

إن المفسرين يقولون في مثل هذا المقام: إن «إن وما بعدها» في مقام التعليل. أي واغضض من صوتك لأن أنكر الأصوات هو صوت الحمير. وهكذا يعلل التحريم بالقبح، وهو تعليل بمقياس جمالي[3].

أليس هذا تربية على استعمال المقاييس الجمالية، والاستعانة بالحس الجمالي؟!

---

(١) سورة الأنعام. الآية [١٤٥].

(٢) سورة لقمان. الآية [١٩].

(٣) قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ في تفسير الآية:

«﴿واغضض من صوتك﴾ أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير). وقال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير. أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه. ومع هذا هو بغيض إلى الله. وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم». ا. هـ.

أقول: واضح من النص كيف جعل ابن كثير «القبح» علة للتحريم.

المقياس الجمالي:

رأينا في الفقرة السابقة كيف أن القرآن الكريم عوَّل على الحس الجمالي كدليل.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هو: كيف نقيس الجمال، وبتعبير آخر: كيف نتأكد أن حِسَّنا الجمالي كان صحيحاً؟

إنه لا بد من معالم يرجع إليها هذا الحس، وتكون ضابطة له في حال انحرافه.

وقد أدى انعدام هذا الضابط في عالم الفن إلى فساد عظيم في مفهوم الجمال.. حتى أصبح «القبح» جمالاً، كما حدث ذلك بالنسبة لبعضهم في موقفه من شعر «بودلير» ولوحات «كوربيه» وكثير من لوحات المدرسة «الدادية» ووريثتها مدرسة «الفن الفقير».. حيث وصل الفساد في الذوق الجمالي إلى درجة انعدام التمييز بين «القبح» و «الجمال»[1].

إن الفطرة السليمة يمكن أن تكون حكماً في هذه القضية، وقد أتاح لها الإسلام أن تأخذ دورها الكبير في تحديد استقامة هذا الحس، ولكنه لما كان انحرافها متوقعاً، نتيجة للعوامل الكثيرة التي تحيط بها فقد وضع المنهج الإسلامي قواعد عامة يرجع إليها في الحالات التي يشتبه بها، أو في الحالات التي يفسد فيها الذوق ويتبلد الحس.

إنه ليس إلغاء لدور الفطرة، ولكنه التوجيه لها، والأخذ بيدها، حيث تتاح لها حرية العمل ضمن إطار المنهج الإسلامي العام.

وفي ميدان التربية الجمالية يحدد لنا المنهج المقاييس العامة لتصرفاتنا الجمالية. وقد لخص ابن القيم ــ رحمه الله ــ الخطوط العامة للمنهج في هذا الميدان فقال:

«الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع:

منه ما يحمد.

ومنه ما يذم.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (الفن الإسلامي، التزام وإبداع).

ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه، وغيظ عدوه.

والمذموم منه ما كان للدنيا، والرياسة والفخر والخيلاء، والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة سوى ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم، فهو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين» [١].

يتبين من ذلك أن الحكم الجمالي يعتمد على عدد من العوامل، في مقدمتها أن يكون مسايراً للخط العام للمنهج، ومنها ما هو مرتبط بالوضع النفسي للإنسان، ومنها ما هو مرتبط بالحال والمناسبة التي يجري فيها الحكم.

إن اللباس إذا اتخذ للتجمل واظهار نعمة الله على الإنسان فهو محمود، وهذا اللباس نفسه إذا اتخذ بدافع الخيلاء والتعالي فهو مذموم، وإذن فالعامل النفسي هو الذي غير الحكم..

إن الفطرة قادرة على التميز بين الحالين، ولكن وجود الضابط يعطينا ثقة في إصدار الحكم.

---

(١) انظر كتاب (الفوائد) لابن القيم ص ٢٣٩-٢٤٠ طبعة دار النفائس بيروت.



الفصل الخامس
قواعد عامة

- النظرة الكلية للإنسان.
- النظرة المدرسية.
- السلامة من العيوب.
- التصعيد الجمالي.



نتحدث ــ في ختام هذا الباب ــ عن بعض القواعد العامة، التي يحسن أن تكون واضحة في الأذهان، قبل البدء بالحديث التفصيلي عن المعطيات الجمالية للمنهج الإسلامي:

النظرة الكلية للإنسان:

الإنسان في النظرة الإسلامية كل لا يتجزأ، وسبق الحديث عن ذلك تفصيلاً [١]. والنظرة التربوية الإسلامية تسير مع هذا الخط الإسلامي العام، وسنلاحظ من خلال بحثنا كيف تميزت هذه التربية بهذا الأسلوب من التعامل الكلي، الأمر الذي حلمت به التربيات الأخرى، ولكنها لعوامل كثيرة لم تستطع الوصول إليه.

والتربيات الحديثة نظرت إلى الإنسان، إما أنه مادة، وإما أنه مادة وروح، وكل منهما منفصل عن الآخر..

ويشرح لنا الدكتور «ج. ب. راين» [٢] الأسباب التي أدت إلى النظرة الأولى ويقول: إن الإنسان مكون من عنصرين أحدهما مادي والآخر لا مادي وهو العقل والروح. وإن السلطان للروح، وما الجسد إلا سكنى لها وأداة.

ويستمر هذا المعتقد المتوارث مع الفرد حتى آخر فترة المراهقة، أما بعد ذلك، فلن يبقى للأسف إلاَّ مع من تخلفوا عن التأمل أو إتمام التعليم المالي..

ثم يتحدث عن مراحل الدراسة، وكيف أنها ترسخ جانب المادة.. إلى أن يقول: وعلى هذا نصل إلى أن الإنسان مادة صرف، وأن العقل ما هو إلا تجلٍ لمخ حين ينشط.

---

(١) سبق الحديث عن ذلك في الجزء الثاني من هذه الدراسة (ميادين الجمال) في الباب الثاني الذي يتحدث عن الإنسان.

(٢) هو أستاذ علم النفس بجامعة (ديول) بالولايات المتحدة. وقد شرح ذلك في كتابه (العقل وسطوته).

ثم ينهي الطالب دراسة العلوم الطبيعية وقد تبخر الكثير من معتقداته الأولى عن الإنسان، وطبيعته المزدوجة وأصله السماوي»[(١)].

ويتحدث «الكسيس كاريل» عن النظرة الثانية فيقول:

«الحقيقة أن الجسم والروح هما وجهان لشيء واحد» ثم ينحو باللائمة على «ديكارت» الذي قال بثنائية الإنسان ويقول: إنه «اعتبر المادة والعقل شيئين غير متجانسين، كما هو الحال في كل شيئين مختلفين. وقد كان لهذا التقسيم أثره البعيد في تاريخ معرفتنا بالإنسان، لأنه أوجد مشكلة مزيفة لعلاقات الروح والجسم.

فحقيقة الأمر أنه ليست هناك مثل هذه العلاقات، فلا الروح ولا الجسم يمكن أن يفحصا كل على حدة»[(٢)].

ويقول أيضاً: «لقد ازدادت التفرقة بين الكم والنوع اتساعاً عندما أنشأ ديكارت مذهب ثنائية الجسم والروح. وعندئذ أصبحت ظواهر العقل غير مفهومة أو قابلة للإيضاح، إذ عزلت المادة عن الروح نهائياً... ولقد أدت هذه الغلطة بالحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان»[(٣)].

ويؤآزر أصحاب النظرة الأولى في اتجاههم أصحاب المذاهب المادية، الذين نظروا إلى الإنسان بعين كارل ماركس أو دارون..

وعلى هذين الأصلين نشأت نظريات التربية الحديثة، فهي إما نظريات لا تعترف بالروح أصلاً، أو أنها تعترف بها كرواسب عقيدية تتذكرها في أيام «الأحد» أو عندما يكون هناك «جنازة» على حد تعبير الدكتور «راين».

وفي هذه الحالة تكون التربية موزعة بين جهتين، فتكون التربية الدينية مهمة الكنيسة، وتكون التربية المادية مهمة المجتمع.. ومن المعلوم أن كلاً من الكنيسة والمجتمع يشغل من هذه التربية بمقدار حجمه. ويكون الإنسان بين قوتين..

---

(١) نقلاً عن كتاب (ركائز الإيمان) للأستاذ محمد الغزالي تحت عنوان: نهج أرشد في دراسة الإنسان.

(٢) الإنسان ذلك المجهول. تأليف (الكسيس كاريل) ص ١٤٠.

(٣) المصدر السابق ص ٣١٦-٣١٧.

ومن هنا جاءت قضية التربية الدينية!!

إن الإسلام في تربيته التي تدعو إلى تنفيذ منهجه، يتعامل مع الإنسان ككل، نعم قد يظهر جانب ما على السطح، بعض الأحيان، ولكن الجوانب الأخرى — في هذه الحالة — لا تختفي نهائياً.

وقد يكون ذلك الظهور من باب التوازن أو التناسق..

ونحب أن نقف على مثالين؛ لإيضاح ما قلناه، أحدهما من باب العبادات — في مفهومها الخاص — والثاني من باب المعاملات.

المثال الأول: الصلاة.

الصلاة عبادة، ومع ذلك فهي ليست عملاً روحياً صرفاً، كما يتبادر للذهن للوهلة الأولى. إنها عبادة يؤديها الإنسان بكامل كيانه. كل جانب منه يؤدي دوره في تناسق تام مع الجوانب الأخرى.

يصلي الجسم: وصلاته تلك الحركات الموزونة المنضبطة.

ويصلي العقل: فيعيش مفكراً بتلك الآيات أو التسبيحات التي تؤدى خلال ومع حركات الجسم.

وتصلي الروح: بمشاعرها وخشوعها، بأشواقها وتطلعاتها..

كل ذلك يجري في وقت واحد وتناسق تام، انها صلاة يؤديها الإنسان بكليته.

ولكن أداء هذه الصلاة من الإنسان بكليته، لا ينسيه أنه جزء من مجتمع. هذا الشعور الاجتماعي يلبي واقعاً عندما تكون الصلاة جماعية ويلبي تصوراً عندما يصلي منفرداً. إنه يقرأ في صلاته ﴿إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم..﴾ هكذا بصيغة «الجمع» فهو وإن كان منفرداً ولكنه واحد من ذلك الحشد الذي يعلن عبوديته لله تعالى..

إنها تربية الجسم.
وتربية العقل.
وتربية الروح.

إنها التربية الفردية.
وإنها التربية الجماعية..

والصلاة بعد ذلك ليست عملاً منفصلاً عن حياة الناس ودنيا الناس.. إنها ذات آثار وثيقة الارتباط بتصرفات الإنسان..

قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر﴾[١] وهذا الوصف للصلاة يعني أنها في الحالة التي لا تنهي عن الفحشاء والمنكر فليست صلاة.

كما أنها وسيلة يلجأ إليها في وقت الأزمات قال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾[٢].

وهي نظافة من الأدران المادية والمعنوية، أما الأدران المادية فإن الوضوء والطهارة تذهبها.. وأما المعنوية فقد بين ذهابها الحديث الشريف:

﴿أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من دَرنه. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا﴾[٣].

وهكذا وجدنا أنفسنا مع الصلاة نتعامل بكليتنا..

وليس هذا شأن الصلاة وحدها بل هو المنهج العام أو الخط العام في هذا المنهج الذي يتعامل مع «الإنسان»[٤].

المثال الثاني: الغصب.

وهو الاستيلاء على حق الغير عدواناً.

---

(١) سورة العنكبوت. الآية [٤٥].
(٢) سورة البقرة. الآية [٤٥].
(٣) الحديث متفق عليه.
(٤) انظر مثلاً في شأن الصوم إلى قوله ﷺ: ﴿من لم يدع قول الزور والعمل به فليس الله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه﴾ رواه البخاري. فالصوم ليس عبادة بالمفهوم الضيق ولكنه تربية على الاستقامة في شؤون الحياة.

والغصب عمل مادي بحت. ولكن الإسلام لا يجعل آثاره كذلك:

فلو كان الشيء المغصوب «ماء» ثم توضأ به الغاصب، فإن هذا الوضوء باطل وكذلك الصلاة التي بنيت عليه، ذلك لأنه من شرط الماء أن يكون حلالاً.

ولو كان الشيء المغصوب جورباً ثم مسح عليه في الوضوء لكان المسح باطلاً ويترتب عليه بطلان الوضوء ثم الصلاة.

والصلاة في الأرض المغصوبة باطلة [١]..

أرأيت كيف أن هذا التشريع يتعامل في أوامره مع الإنسان بكليّته فلا يفصل جانب المعاملة عن جانب العبادة.. لأن الإنسان ليس جسماً وروحاً.. كل منهما منفصل عن الآخر.

إنه تشريع للإنسان.

وإنها تربية للإنسان.

تلك هي نظرة الإسلام.

النظرة المدرسية:

وحدة الإنسان، أمر قرره الإسلام، لا مرية فيه، ولكن ضرورة البحث تدفعنا إلى التقسيم والتبويب، فنحن لا نستطيع تناول الموضوع كله دفعة واحدة، ولذا كان لا بد من اللجوء إلى هذه الوسيلة، وسيلة التقسيم. وعلى هذا فسوف يكون الحديث: عن ظاهر الإنسان أولاً، ثم عن باطنه ثانياً.

وقد سبق لنا أن تحدثنا من خلال هذا التقسيم عن الإنسان [٢]. ورأينا كيف أن السابقين من الأئمة الأعلام قد سلكوا هذا السبيل فذهب «ابن القيم» إلى استعمال مصطلح «الظاهر والباطن» وذهب «ابن تيمية» إلى الحديث عن «جمال الخَلْق» و «جمال الخُلُق» وذهب «الغزالي» إلى وجود صورتين «صورة

---

(١) هذا مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

(٢) انظر (الظاهرة الجمالية في الإسلام) ص ٢٠٥ وما بعدها. وكذلك الفصل الخامس من الباب الثاني في كتاب (ميادين الجمال).

ظاهرة» و «صورة باطنة» تماثلها..

وقد بينا فيما سبق اختيارنا لمصطلح «الظاهر والباطن» وتحدثنا عن علة ذلك.

ونذكّر هنا بهذا الأمر، لأننا سنسلك هذا التقسيم في موضوعنا، مع يقيننا بوحدة هذا الإنسان، وأننا في التربية نتعامل معه كلاً..

سنتناول بالبحث كل ما يرتبط بالظاهر أو يغلب عليه ذلك عند حديثنا عن الظاهر، وفي المقابل، يكون كل ما له ارتباط بالباطن أو يغلب عليه ذلك، عند الحديث عن الباطن.

السلامة من العيوب:

سبق لنا أن تحدثنا تحت هذا العنوان، كان ذلك في صدد الحديث عن سمات الجمال(١).

ونتحدث هنا عن ذلك كقاعدة جمالية، في ميدان التربية الإسلامية، إنها قاعدة ينبغي مراعاتها حينما نعالج الموضوع التربوي الجمالي. إن التخلص من العيوب، مقدم على جلب الجماليات، وذلك لعدم إمكان اللقاء بين الجانبين. ولو حدث هذا لكان الجمال عندها تأكيداً للقبح لأنه سيفقد سمة جمالية أساسية، وهي سمة التناسق، وعلى هذا لا بد من ملاحظة التخلص من العيوب قبل البدء بعمليات التجميل. وتلك هي طريقة المنهج، التي سنلاحظ تطبيقاتها في الفصول القادمة.

إن «كلمة التوحيد» نفسها تنطلق من هذا المنطلق، إنها نفي لكل الآلهة المزيفة وتفريغ للقلب منها، ثم إثبات للإله الواحد سبحانه. إن ذلك ليبدو واضحاً عندما نقول: (لا إله إلا الله).

يقول ابن القيم، رحمه الله:

«قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات

---

(١) انظر (الظاهرة الجمالية في الإسلام) ص ٢٢٤.

والأعيان. فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبه، لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه، إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل. وكذلك الجوارح..»[1].

التصعيد الجمالي:

هناك حد أدنى من «التجمل» لا ينبغي للمسلم أن يهبط عنه بحال من الأحوال. سواء أكان منفرداً أم في مجتمع.

وقد تبين لي من التصور العام لخط التربية الجمالية، أن المنهج يطالب بتصعيد المستوى الجمالي المطلوب، إذا كان الفرد ضمن مجتمع، أو في طريقه إلى ذاك المجتمع.

وإن هذا التصعيد يتناسب طرداً مع مقدار وحجم المجتمع:

فالزينة للصلاة أمر مطلوب.

ولكن هذه الزينة ينبغي أن تكون أعظم إذا كانت الصلاة صلاة جماعة.

وتكون أكبر وأكبر إذا كانت صلاة جمعة.
وتكون أكبر وأكبر إذا كانت صلاة عيد.
وتكون في ذروتها إذا كنا في أداء فريضة الحج.

إنها قاعدة تستحق أن نلفت النظر إليها، منذ البدء، قبل أن نصل إلى الحديث عن التطبيقات.

* * *

تلك بعض القواعد العامة، التي كان من المفيد أن نذكر بها قبل أن نباشر البحث التفصيلي.

---

(١) كتاب (الفوائد) لابن القيم ص ٤٣. طبعة دار النفائس. بيروت.



الباب الثاني

التشريعات الجمالية
في
المنهج الإسلامي



التشريع بيان للمسلك الذي ينبغي أن يسير الإنسان على هديه، والتشريع الإسلامي، بل والهدي الإسلامي يجعل الجمال واحداً من مقاصده، ولهذا عندما ننظر إلى خارطة الإسلام العظيمة، فإنا نراها لألاءة نضرة، تبعث في النفس السرور والرضى، وتشيع في العين البهجة والحبور، وتنساب إلى الأذن ألحان السعادة والأنس، وإذا ما تنفست هواءها، وجدت نفسك في ظلال من أريج وعبير.

ووجدت نفسك في حيرة من أمرك؟ فمن أين يبدأ حديثك؟ فهذه الخارطة للإنسان، وهو كل لا يتجزأ.

ومهما يكن من أمر، فهذه التشريعات تسير في خطين متوازيين، لا يستغني أحدهما عن الأخر، وبلقائهما يسطع الجمال الإنساني، فإذا الإنسان في بهاء ملائكي.

خطان كلاهما موجب، وتلك سمة الصنعة الإلهية.

خط يعنى بتشريعات الصورة الظاهرة، والآخر يعنى بالصورة الباطنة.

غاية الأول السعي لإيجاد «المظهر الجمالي».
وغاية الثاني السعي لإيجاد «الموقف الجمالي».

والفصل بين الخطين، ليس أمراً سهلاً. ولكننا نحاول ذلك كي نستطيع بيان مراكز الإشعاع على هذه الخارطة، والتفرعات المنبثقة عنها، علّنا نكوّن تصوراً للخارطة الجمالية ضمن الخارطة العامة.

وإذن: فنحن في هذا الباب أمام قسمين.

القسم الأول: ويتناول: جماليات الظاهر.
القسم الثاني: ويتناول: جماليات الباطن.



القسم الأول

جماليات الظاهر



«الجمال الظاهر زينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ قالوا: هو الصوت الحسن، والصورة الحسنة».

هذا ما قاله «ابن القيم» عن جمال الإنسان الظاهر، وهذا النوع من الجمال لا يد للإنسان فيه، فهو تقدير الله تعالى وصنعته، إنه منحة إلهية لبعض الصور.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن كانت صورته حسنة فليس ذلك عن إرادة منه وقصد، ومن كانت صورته أدنى من ذلك، فليس ذلك عن إرادة منه وقصد.

وما كان كذلك فلا فخر للإنسان فيه، ولا يحسن أن يتعالى على الناس به، فإذا فعل ذلك وسيطر عليه الغرور، فإن هذا القبح الباطن سيذهب بذلك الجمال الظاهر.

وليس هذا الأمر من موضوع بحثنا، الذي سيكون قاصراً على الحديث عن «التجميل»، أي الحديث عن الوسائل التي ينبغي اتخاذها لتجميل هذا الظاهر والعناية به.

وإذا كان من شيء، ينبغي التنويه به ونحن نتحدث عن هذا الجمال، فهوالإشارة إلى أن إدراكه سهل ميسور، إذ يعتمد على البصر الظاهر، بينما يعتمد إدراك الجمال الباطن على البصيرة.

ولهذا السبب كان مدركو الجمال الظاهر أكثر من مدركي الجمال الباطن.

وفي هذا القسم نتناول بالحديث: الجسم، واللباس، والهيئة. والقول..



الفصل الأوَل

جَماليات الجسم

- ◻ النظافة.
- ◻ سنن الفطرة.
- ◻ النظام اليومي للنظافة.
- ◻ النظافة والمناسبات العامة.



النظافة:

تبدأ جماليات الإنسان من العناية بجسده، ثم العناية بملبسه، ثم العناية بما يحيط به.

والنظافة عامل أساسي في بناء الجمال، فهي مطلوبة في كل ما سبق، مطلوبة في الجسم والثياب، فيما يظهر وما لا يظهر، مطلوبة في المنزل والمسجد والشارع..

والنظافة وإن كانت أمراً فطرياً، ينبغي أن يقوم به الإنسان بدافع من هذه الفطرة، إلا أن الإسلام قد أخضعها لنظام وتوقيت ومناسبات.. وذلك حتى لا يتهاون بها، أو يتكاسل عنها، أو تهمل حينما تصاب الفطرة ببعض الخلل.

وقد شرفت «النظافة» في ظل هذا الدين، إذ جعلت شطراً من العبادة اليومية، بل جعلت شرطاً يتوقف عليها صحة هذه العبادة التي هي الصلاة.

وفي الحديث الشريف: (الطهور شطر الإيمان)[١].

ولم يكتف الإسلام بذلك بل ارتقى بها إلى درجة أعلى، حين جعلها صفة تُنال بها محبة الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾[٢].
وقال سبحانه: ﴿ والله يحب المطهرين ﴾[٣].

والنظافة هي العمل الأول الذي يقوم به من أراد الدخول في الإسلام ليزيل عن نفسه أرجاس الجاهلية. قال قيس بن عاصم رضي الله عنه: (أتيت رسول الله ﷺ أريد الإسلام، فأمرني أن أغتسل بماء وسدر)[٤].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة البقرة. الآية [٢٢٢].
(٣) سورة التوبة. الآية [١٠٨].
(٤) رواه أبو داود والترمذي والنسائي. انظر جامع الأصول ٣٣٨/٧.

إن الإسلام إذ يمنح «النظافة» هذه المكانة إنما يجعلها سمة لازمة للمسلم، الأمر الذي يجعله إنساناً متميزاً.

سنن الفطرة:

هناك أوليات عامة ينبغي مراعاتها، وقد تناولها النظام تحت عنوان «سنن الفطرة». وذلك يعني أنها مما تدعو إليها الفطرة، ومع ذلك، فالإسلام يدخلها ضمن إطاره حتى لا يتسرب إليها التهاون.

من هذه الأمور ما يطلب لمرة واحدة كالختان، ومنها ما يحسن تعهده بين الفينة والفينة بحسب الحاجة ومن ذلك: قص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف شعر الإبط، وحلق العانة.

جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: ﴿الفطرة خمس: الختان والاستحداد وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط﴾[1].

والملاحظ أن هذه الأمور منها ما هو ظاهر. كقص الشارب وتقليم الأظافر، ومنها ما هو مستور بالثياب.. ومع ذلك فالأمر بالعناية يتناولها جميعاً. ومن هنا كانت قضية النظافة ليست أمراً يراعى فيه الجانب الاجتماعي وحسب، بل يراعي فيه الجانب الشخصي أيضاً، فينبغي أن يتجمل الإنسان لنفسه ويعتني بها.

ومن هذه السنن أيضاً، غسل اليدين قبل الطعام وبعده. جاء في تفسير القرطبي قوله: «اعلم أنه يستحب للإنسان غسل اليد قبل الطعام وبعده لقوله عليه السلام: ﴿الوضوء قبل الطعام وبعده بركة﴾[2]»[3]. والمقصود هنا بالوضوء الوضوء اللغوي الذي يعني غسل اليدين.

وينضوي تحت هذا القسم ما ورد من الأمر بالاغتسال في الأسبوع مرة، ففي

---

(١) رواه الجماعة. انظر جامع الأصول ٧٧٣/٤.

(٢) الحديث رواه الترمذي وأبو داود بلفظ (بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده). انظر جامع الأصول ٤٠٢/٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن. في تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف.

الصحيح ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿لله تعالى على كل مسلم حق أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً. يغسل فيه رأسه وجسده﴾[1].

تلك هي مبدئيات في باب النظافة العامة، يؤكد الإسلام طلبها على الرغم من أنها مسائل تستدعيها الفطرة ويتطلبها الذوق السليم.

النظام اليومي للنظافة:

النظافة في الإسلام جزء من الحياة اليومية، يرسم خطها العام «الوضوء» الذي يتكرر في كل يوم أكثر من مرة..

والوضوء نظافة خاصة، ينبغي أن تسبقها عملية تمهيدية، يطلق عليها الفقهاء اسم «الطهارة من الخبث»، وهي تعني القيام بإزالة الأوساخ والنجاسات التي ربما كانت على الجسم، وتنظيماً لهذا الشأن طلب الإسلام من المسلم عند «قضاء حاجته» إن يغسل المحل بالماء حتى ينظف، ولا يبقى أي أثر للنجاسة.

والوضوء عملية غسل تتناول الأعضاء الظاهرة في الجسم، وفق نظام وترتيب، وهي تشمل بالغسل: الوجه، واليدين إلى المرفقين، والرجلين إلى الكعبين، كما تتناول مسح الرأس وكذلك الأذنين، ويكون تنظيف الفم بالمضمضة، وتنظيف الأنف بالاستنشاق..

إن هذا الوضوء شرط للصلاة، وله نواقض تفسده، فإذا حصل واحد منها كان على المسلم أن يجدده وبتعبير آخر، أن يبدأ وضوءاً جديداً.

ونستطيع القول بأن المعدل الوسطي للوضوء في حياة المسلم اليومية هو ثلاث مرات لأداء خمس صلوات في اليوم والليلة.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن هذا الوضوء لا يُعدّ صحيحاً إلا إذا باشر الماء الجسم بحيث لا يكون على الجسم ما يمنع وصول الماء إليه من دهن وما أشبه ذلك، كما أنه لا بد من تعهد الأماكن التي ربما لا يصلها الماء، ولذا وجب تخليل الأصابع والعناية بوصول الماء إلى عقبي الرجلين.

---

(١) رواه البخاري. كتاب الجمعة باب ١٢.

- ونعتقد أن الوضوء بهذا العدد اليومي، وبهذا الاستيعاب استطاع أن يجعل من الإنسان المسلم مثالاً للنظافة.

وإذا كان الوضوء طهارة تتناول الأعضاء الظاهرة، فهذا لا يعني أن بقية الجسد محروم من العناية، فقد رأينا ــ قبل قليل ــ كيف أمر المسلم بالاغتسال كل أسبوع ولو مرة، وهو الحد الأدنى، ثم إن الإسلام لم يكتف بهذا، فقد فرض الغسل ــ أي غسل جميع الجسم ــ في مناسبات متكررة من حياة الإنسان [١]... مما يضمن له النظافة الكاملة.

النظافة والمناسبات العامة:

الأعياد مناسبات عامة، يجتمع فيها الناس، وتكثر لقاءاتهم..

والتجمل للأعياد سنة متبعة، والإسلام على طريقته في الكلية والشمول، يعطي لهذه المناسبات قسطها من ذلك، فتكون أولى الخطوات هي التأكيد على النظافة الكاملة للجسم.

وللمسلمين ثلاثة أعياد ثابتة، هي «يوم الجمعة» و «يوم عيد الفطر» وأيام «عيد الأضحى»، ومن السنة الاغتسال لكل منها.

جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: ﴿الغسل يوم الجمعة واجب على كل مسلم﴾ [٢].

وقال ﷺ في جمعة من الجمع:

﴿يا معشر المسلمين: إن هذا يوم جعله الله عيداً فاغتسلوا..﴾ [٣].

---

(١) من المعروف فقهاً أن الطهارة ثلاثة أنواع.
ــ طهارة من الخبث. وتكون بإزالة النجاسة عن الجسم أو الثوب أو المكان.
ــ طهارة من الحدث الأصغر. وتكون بالوضوء.
ــ طهارة من الحدث الأكبر. وتكون بالغسل، أي غسل جميع الجسم وموجبات الغسل هي: الإحتلام، والعلاقة الجنسية بين الرجل وامرأته، والحيض والنفاس بالنسبة للمرأة عند انتهاء مدتها.

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبوداود ومالك. جامع الأصول ٣٢٣/٧.

(٣) أخرجه الموطأ. انظر جامع الأصول ٣٢٤/٧.

ويفهم من هذا النص أن الاغتسال لأيـام العيد من باب أولى، إذ كأنه جعل كونه «عيداً» علة للاغتسال.

وتبلغ قضية الاهتمام بهذا الشأن أن يعاتب عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما بشأن الاغتسال ليوم الجمعة.

فبينما عمر يخطب الناس يوم الجمعة، إذ دخل عثمان بن عفان، فناداه عمر: أية ساعة هذه؟ قال: إني شغلت اليوم، فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين، فلم أزد على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضاً؟ وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل (١).

إن عمر ينكر على عثمان ــ رضي الله عنهما ــ ترك الغسل اكتفاء بالوضوء.

والحكمة من هذه الاغتسالات ليست خافية، فإن الازدحام والاجتماع قد يحدث التعرق لدى بعض الناس، فإذا حدث هذا التعرق على غير نظافة نشر الروائح الكريهة..

* * *

ويزداد حجم التأكيد على النظافة، كلما كبر حجم اللقاء، بكثرة المجتمعين أو بطول مدة اللقاء.

وذلك ما نلاحظه في مناسك الحج.

والحج لقاء سنوي عام يتجاوز حدود القرية والبلدة والمدينة والقطر، إنه لقاء الأمة، في مجتمعها الكبير الذي يستمر عدة أيام.

وتأخذ العناية بالنظافة هنا شكلاً آخر، حيث يصل الخط البياني إلى ذروته، حيث يستمر الخط العام الذي سبق الحديث عنه، ويضاف إليه عدد من الاغتسالات في تلك المدة الوجيزة.

يقول الإمام الغزالي: «.. والاغتسالات المستحبة والمسنونة في الحج تسعة..» (٢).

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، ومالك، وأبو داود، والترمذي. انظر جامع الأصول ٣٢٥/٧.

(٢) إحياء علوم الدين ٢٤٩/١. =

إن على المسلم أن يكرر الغسل في موسم الحج تسع مرات، في مدة قد لا تزيد عن تسعة أيام.

وإذا عرفنا أن هذا التشريع صدر في أيام كانت مكة فيها شحيحة الماء عرفنا معجزة هذا الدين. وأنه التشريع الإلهي الذي لا يصدر في حكمه عن اعتبارات زمانية أو مكانية، إنما هو التشريع الذي يرعى شؤون هذا الإنسان.

* * *

إنها لوحة فنية، تلك التي ترسم خطوط المنهج لنظافة الجسم.

خط عام في الحالة العادية يتعهد الأعضاء الظاهرة يومياً، بل ساعيّاً، ويتعهد الجسم كله أسبوعياً، وخلال ذلك يرعى الأسباب الطارئة بمقابل من الاعتبار..

ثم يصعد هذا الخط في المناسبات العامة..

ويبلغ التصعيد ذروته حينما تتلاحق الأعمال ويتبع بعضها بعضاً وتزدحم الواجبات.

إنه التناسب الطردي الذي يراعي جميع المعطيات، إنه يراعي الحجم العددي، وحجم الجهد المبذول، ومقدار الوقت الذي ينبغي أن يؤدي به العمل المطلوب..

إن التغذية عادة تتناسب مع الجهد المبذول.. والنظافة هنا تُطلب وفقاً للمبدأ نفسه مع مراعاة المعطيات الأخرى المشار إليها.

ومع هذا كله، فالنظافة عمل من أعمال العبادة. وهل رأيت منهجاً يجعل النظافة عبادة؟ إنه الإسلام.

= وقد عدد هذه الأغسال فقال: (للاحرام من الميقات، ثم لدخول مكة، ثم لطواف القدوم، ثم للوقوف بعرفه ثم للوقوف بمزدلفة. ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث ــ ولا غسل لرمي جمرة العقبة ــ ثم لطواف الوداع).

الفصل الثاني

جماليات اللباس

- الفطرة والمنهج.
- العناية باللباس.
- اللباس والمناسبات.
- ألبسة ممنوعة.
- مفهوم خاطىء.
- جماليات المنازل.
- جماليات المدن.



الفطرة والمنهج:

اللباس هو الوسيلة التي تصون كرامة الإنسان، فتستر عورته، وتدفع عنه حر الصيف وبرد الشتاء.

إنه تلبية لحاجة فطرية[1]، من حيث ستر العورة، والتجمل به. وإلى هذا أشارت الآية الكريمة:

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا..﴾[2].

وهو تلبية لحاجة طبيعية، من حيث الوقاية من الحر والبرد، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة:

﴿..وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم..﴾[3].

ويعرف الناس بعضهم بعضاً بلباسهم، الذي به يتقابلون، وبه يتعايشون، ولذا كانت الثياب هي المادة التجميلية الأولى، التي يشترك كل الناس في العناية بها.

وللثياب في نظام الإسلام مواصفات، ينبغي أن تتوفر فيها حتى تستكمل دورها في أداء مهمتها. وهي:

ــ الطهارة

ــ النظافة.

---

(١) إن ستر العورة حاجة فطرية يسجلها قوله تعالى: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ فآدم وحواء بعد أن بدت لهما عورتهما ذهبا بشكل تلقائي يستر كل منهما عورته فلم يجد سوى ورق الشجر.. فسترا به سوأتيهما. فلم يكن هناك أمر بذلك وإنما هي الفطرة التي دفعتهما إلى هذا المسلك.

(٢) سورة الأعراف. الآية [٢٦].

(٣) سورة النحل. الآية [٨١].

ـ الزينة.

فالطهارة هي الحد الأدنى الذي لا بد منه، بمعنى أن ثياب الإنسان ينبغي أن تكون خالية من جميع النجاسات والقاذورات، وهي بهذا تكون طاهرة تصلح لأداء الصلاة..

والطهارة وحدها غير كافية، فلا بد من العناية بنظافة الثياب، إذ الطهارة إزالة لما يقرر الإسلام قذارته شرعاً، والنظافة أعم من ذلك، فهي المحافظة على الثياب بعيدة عن كل الأوساخ... وتجديد الغسل كلما أصابها شيء من ذلك[1].

عن جابر رضي الله عنه قال: (أتانا رسول الله ﷺ زائراً، فرأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: ما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه؟!)[2].

وفي سبيل المحافظة على النظافة، كانت الدعوة إلى لبس الثياب ذات اللون الأبيض، ذلك أن هذا اللون شديد التأثر بالأوساخ، أي أنها تظهر عليه سريعاً، فلا يخفى منها شيء، وهذا ما يدعو صاحبه إلى غسله، أو تغييره.. وبذلك تتأكد عملية النظافة باستمرار، وهذا ما نفهمه من الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب﴾[3].

إن «الطهارة» و«النظافة» أمران لا يعذر فيهما أحد من الناس سواء أكان غنياً أم فقيراً.

وأما الزينة فأمرها تابع إلى قدرة الإنسان المالية، فإذا كان ذا غنى فمن السنة أن يتخذ الجيد والجميل من الثياب.

روى أبو الأحوص عن أبيه قال: (أتيت رسول الله ﷺ، وعلي ثوب دون،

---

(١) واضح من هذا أن الثوب قد يكون وسخاً وهو مع ذلك طاهر، بمعنى أن الأوساخ التي أصابته ليست نجسة.

(٢) رواه أحمد والنسائي. وعند أبي داود بلفظ (أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه).

(٣) رواه أحمد وأهل السنن، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ الأعراف. [٣١].

فقال لي: ألك مال؟

قلت: نعم.

قال: من أي المال؟

قلت: من كل المال قد أعطاني الله، من الإبل والبقر والغنم والخيل والرقيق.

قال: فإذا آتاك الله مالاً، فليُرَ أثرُ نعمةِ الله عليك وكرامته).

وفي رواية (رآني النبي ﷺ وعلي أطمار...)[1].

ذلك هو الخط العام الذي يضعه الإسلام لقضية اللباس، حد أدنى من الجمال يطالب به جميع الناس، وهو ما يحقق نفي العيوب عن الثوب من الأقذار والأوساخ.. ويكون بالحرص على الطهارة والنظافة. ثم المطالبة بالجانب الجمالي ضمن الإمكانات المتاحة.

العناية باللباس:

إن الإسلام يطلب من الإنسان أن يعتني بملبسه ــ بحسب قدرته ــ كما رأينا في حديث أبي الأحوص.

وقد كان النبي ﷺ يعتني بلباسه، وهو القدوة للناس، فكان يحب نوعاً من الثياب يسمى (الحبرة) وهي نوع من البرود الموشاة المنقوشة[2] قال أنس رضي الله عنه: (كان أحب ما لرسول الله ﷺ أن يلبسه الحبرة)[3].

وقد روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل) وذلك في معرض الرد على من انتقده في تأنقه بملبسه[4].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي. انظر المسند ٤٧٣/٣ وسنن أبي داود في كتاب اللباس. وعند النسائي في كتاب الزينة.

(٢) هذا ما ذكره جامع الأصول. وقال محي الدين عبد الحميد في التعليق على سنن أبي داود الحبرة: برد يمان أخضر يصنع من قطن وفيه خطوط.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو داود. جامع الأصول ٦٦٤/١٠.

(٤) رواه أبو داود. انظر جامع الأصول ٦٦٥/١٠.

وقد أقر النبي ﷺ الرجل الذي كان يحب التأنق في ملبسه، وبين له أن ذلك ليس من الكبر. بل إنه مما يحبه الله تعالى:

﴿عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق وغمط الناس﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ ــ وكان رجلاً جميلاً ــ فقال: يا رسول الله، إني رجل حبب إلي الجمال وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد ــ إما قال: بشراك نعل وإما قال: بشسع نعل ــ أفمن الكبر ذلك قال: لا. ولكن الكبر من بطر الحق، وغمط الناس)[2].

وقد علق ابن تيمية على الحديث الأول بقوله: «قد أدرج فيه حسن الثياب التي هي المسؤول عنها، فعلم أن الله يحب الجمال، والجميل من الثياب. ويدخل في عمومه وبطريق الفحوى، الجميل من كل شيء»[3].

وقد أنكر الرسول الكريم ﷺ على راع لبس الخلق من الثياب. فقد روى جابر بن عبد الله عنه أن الرسول ﷺ زارهم.. قال جابر: (.. وعندنا صاحب لنا، يخرج يرعى ظهراً لنا، وعليه بردان قد أخلقا، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: أما له ثوبان غير هذين؟ قلت: بلى، له ثوبان في العيبة كسوته إياها، قال: فادعه فليلبسهما.. ثم قال: أليس هذا خيراً؟..)[4].

إن الرسول الكريم ﷺ لم يقبل من هذا الراعي ــ وطبيعة عمله بعيدة عن مخالطة الناس ــ أن يلبس ثياباً ممزقة طالما أنه يملك ما هو خير منها.

إنها الزينة التي يطلبها القرآن الكريم وينكر على الذين يحرمونها. قال تعالى:

---

(١) رواه أبو داود ومسلم والترمذي. جامع الأصول ٦١٤/١٠.

(٢) رواه أبو داود. جامع الأصول ٦١٥/١٠.

(٣) الاستقامة ٤٢٢/١.

(٤) رواه مالك في الموطأ. انظر جامع الأصول ٦٦٠/١٠.

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾[1].

قال القرطبي في تفسيره: والزينة هنا: الملبس الحسن إذا قدر عليه صاحبه.
تلك هي طريقة الإسلام في العناية باللباس..

اللباس والمناسبات:

إن الإسلام الذي عودنا العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، لم يكتف بما سبق ذكره من العناية بالملبس، إذا ما كان هناك مناسبة من المناسبات التي يرعاها.

وهنا نلحظ تصعيداً في الاهتمام بالثياب، واختيار الأحسن والأجمل منها.. وهذا التصعيد يتناسب طرداً مع حجم المجتمع.

□ في صلاة الجماعة حيث يجتمع الناس كل يوم خمس مرات لأداء الصلوات المكتوبة.. يطالبون بأخذ زينتهم. قال تعالى:

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[2].

قال القرطبي في تفسيره: إنه عام في كل مسجد للصلاة. ا هـ.

وهذا يعني الدعوة إلى الذهاب إلى الصلاة بالملبس الحسن، عناية منه تعالى بأمر ذلك المجتمع الإيماني، وتجملاً للوقوف بين يديه سبحانه وتعالى.

على أن كلمة (مسجد) الواردة في الآية، هي مصدر ميمي من فعل (سجد) وعلى هذا يكون المعنى: خذوا زينتكم عند كل سجود أي عند كل صلاة، سواء أكانت في المسجد أم خارجه.

ومما يؤيد هذا المعنى ما روي عن الحسن ـــ السبط ـــ رضي الله عنه، أنه كان إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه، فسئل عن ذلك فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأتجمل لربي، وهو يقول: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف. الآية [٣٢].

(٢) سورة الأعراف. الآية [٣١].

(٣) انظر تفسير المنار في تفسير الآية المذكور: ٨/٣٨٢.

وإذن: فالزينة مطلوبة للصلاة، سواء أكانت على انفراد أم في المسجد، وهي للمسجد ألزم مراعاة لحق الجماعة.

وإذا كان من الصعب على جميع الناس الالتزام بذلك، بسبب ما يمارسه بعضهم في حياتهم اليومية من المهن، التي قد لا تتيح لهم الاستمرار بالأخذ بأسباب الزينة، فإن الإسلام يتسامح معهم ويأذن لهم بأن يحضروا صلاة الجماعة، ولكن بشرط توفر النظافة بحيث لا يتأذى غيرهم بحضورهم. فإذا كانوا في وضع قد يؤذي غيرهم فإنهم في هذه الحالة يعذرون من الذهاب إلى المسجد ويصلون في بيوتهم. حفاظاً على حد أدنى في مستوى الحضور في المساجد.

□ وفي يوم الجمعة، حيث صلاة الجمعة، نرتفع درجة أخرى في سلم التصعيد الجمالي. حيث يطالب المسلم بالاستعداد لهذا اليوم نظافة وجمالاً، جسماً وثياباً..

قال ﷺ: ﴿ما على أحدكم ــ إن وجد ــ أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿على كل مسلم الغسل يوم الجمعة، ويلبس من صالح ثيابه وإن كان له طيب مس منه﴾(٢).

وعن جابر رضي الله عنه: (أنه كان للنبي ﷺ برد يلبسه في العيدين والجمعة)(٣).

إنه اجتماع كبير في يوم لا يعمل الناس فيه عادة، وحضور هذه الصلاة في الجماعة فرض، وأخذ الزينة والعناية بالشكل لا يشق على الإنسان في مثل هذه المناسبات، ولذا كان التأكيد عليها.

□ ويقال في العيد ما يقال في الجمعة.

فعن النبي ﷺ: ﴿أنه كان يلبس برد حبرة في كل عيد﴾(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود. انظر جامع الأصول ١٠/٦٥٩.
(٢) رواه أحمد والشيخان.
(٣) قال في فقه السنة، للسيد سابق ١/٢٥٢ رواه البيهقي.
(٤) قال في فقه السنة ١/٢٦٧ رواه الشافعي والبغوي.

وعن الحسن ـــ السبط ـــ رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ في العيدين أن نلبس أجود ما نجده وأن نتطيب بأجود ما نجده [١]..

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله..﴾ [٢]: دلت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان.

ثم نقل عن أبي الفرج بن الجوزي قوله: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان..

□ ذلك هو الموقف في المناسبات العامة، ولكن الناس لهم مناسباتهم الخاصة، والتي يجتمع فيها الناس عادة، ولم يهمل الإسلام مثل هذه المظاهر الاجتماعية، بل طلب التجمل لها.

وقد رأينا اشارة القرطبي وابن الجوزي إلى ذلك في الفقرة السابقة. وقد نقل القرطبي عن أبي العالية قوله: كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا.

وقد أوصى النبي ﷺ بعض الصحابة وهم قادمون من سفر أن يصلحوا من حالهم قبل لقاء إخوانهم.

قال ﷺ: ﴿إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش﴾ [٣].

ألبسة ممنوعة:

قد يتساءل بعضهم فيقول: إذا كان الإسلام يهتم بأمر التجمل بالملابس ويعطيها هذا الجانب من العناية، فلم حرم بعض الملابس المتفق على جمالها، وقيد حرية الإنسان في اتخاذ بعض الألبسة..

---

(١) قال في فقه السنة ٢٦٧/١ رواه الحاكم.

(٢) سورة الأعراف. الآية [٣٢].

(٣) رواه أبوداود ٥٨/٤. كتاب اللباس. باب ما جاء في اسبال الازار.

ثم يسوق من الأمثلة على ذلك:

ــ تحريم لبس الذهب والحرير على الرجال

ــ تحريم الزهو باللباس الجميل

ــ تحريم الألبسة النسائية الشفافة..

ونقول في الإجابة على ذلك:

□ إن الذهب والحرير، وسيلة تجميلية لا شك فيها، ولشدة إمعانهما في هذا المعنى كانا ألصق بزينة المرأة، لتناسبهما مع مهمتها الحياتية كزوجة..

ومن طبيعة كل من الذهب والحرير أنهما يضفيان على لابسهما رقة ونعومة وهذه صفات تتعارض مع طبيعة الرجل ومهمته في الحياة. وإنا لنلحظ فيمن يلبسهما من الرجال التأثر الواسع بصفات الأنوثة.. مما يخل بجمال الرجولة.

وتحريم الذهب والحرير على الرجال، أمر يتساوى مع الخط العام الذي رسمه الإسلام، في أن يكون الرجل رجلاً، وأن تكون المرأة امرأة فلا يختلط جنس بجنس ولا يتشبه جنس بجنس، إنه لا يريد ظهور ذلك النوع الثالث الذي برز على مسرح الحياة فلا هو رجل ولا هو امرأة [(١)].

وفي ضوء هذا نفهم قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال. والمتشبهين من الرجال بالنساء﴾[(٢)].

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم:

﴿لعن الرجل يلبس لبس المرأة، والمرأة تلبس لبس الرجل﴾[(٣)].

إن تحريم لبس الحرير والذهب على الرجال حفاظ على جمال الرجولة، هذا ما تقوله الفطرة. أما حين تفسد هذه الفطرة، فإن الفساد يستشري حتى يصل إلى الموازين التي تقاس بها الأمور؟!

---

(١) تحدثنا عن هذا النوع في الجزء الثاني من هذه الدراسة (ميادين الجمال) تحت عنوان (جمال الرجل وجمال المرأة).

(٢) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي، والترمذي.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود.

□ وأما الزهو باللباس والتعالي به، فهذا لا يحرم لذات اللباس وإنما لما أورثه في النفس من التكبر والتغطرس.. تلك الصفات التي يكرهها الله تعالى.

ونحن حينما ننظر إلى هذا الإنسان الذي يجر ثيابه كبراً وخيلاء، نرى تناقضاً بين الصورة والحقيقة.. إن الصورة توحي بالعنفوان والعجب والمخيلة ولكن الحقيقة شيء آخر. إنه في حقيقته، ضعف وخور واحتياج إلى كل شيء.. إنه التناقض بين الظاهر والباطن وهنا يتجلى قبح هذه اللوحة.

ثم إن اتخاذ الثياب وسيلة كبر، خروج بها عن مهمتها ووظيفتها التي أشرنا إليها في بدء الفصل.

نستطيع الآن أن نفهم قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء﴾ (١).

وعلينا هنا أن نفرق بين أمرين: حب الجمال الذي سبق الحديث عنه، والذي أقره الرسول الله ﷺ، وبين الكبر والخيلاء. فذلك نابع من سلامة الفطرة، وهذا دليل على فساد الطوية.

□ وأما تحريم الألبسة النسائية الشفافة أو ما في حكمها مما يمثل أعضاء الجسم، فقبل الخوض في الحديث عن ذلك، ينبغي أن نذكر بقاعدتين جماليتين سبق تقريرهما:

في حديثنا عن مكانة الجمال. قلنا إنه من باب الكماليات أي أنه يأتي بعد الضروريات والحاجيات (٢).

وبتطبيق هذه القاعدة على اللباس نقول:

لا بد في اللباس أن يلبي جانب الضرورات. والضرورة هنا هي ستر العورة. كما قال تعالى: ﴿لباساً يواري سوآتكم﴾ (٣).

ـ ولا بد أن يلبي جانب الحاجيات. وهي هنا دفع الحر والبرد وهو ما أشارت

---

(١) أخرجه الجماعة إلا أبا داود. انظر جامع الأصول ١٠/٦١٨.

(٢) انظر هذا الموضوع في الجزء الأول من هذه الدراسة (الظاهرة الجمالية) ص ١٢٢.

(٣) سورة الأعراف [٢٦].

إليه الآية الكريمة ﴿سرابيل تقيكم الحر..﴾[1].

ـ فإذا توفر الأمران السابقان أمكن أن نهتم بالجانب الجمالي. من لون ونعومة...

أما حين لا يوفر اللباس الأمرين الأولين فقد ترك وظيفته الأساسية، وهنا نصل للحديث عن القاعدة الثانية التي تنص على أن وظيفة الشيء ينبغي أن تؤدى عن طريق جماله[2].

ومعنى هذا أن فقدان الوظيفة يعني فقدان الجمال.

كما أن توفر الجانب الكمالي في الشيء مع فقدان الجانب الضروري والحاجي، هو خلل يؤدي إلى الفساد. وهنا يذهب الجمال ولا يبقى له أثر.

ونضرب مثلاً لذلك. فنقول: ما هو الجمال في (سكين) من الورق المقوى لا قدرة لها على القطع أو الثقب..؟

وما هو جمال ثوب لا يؤدي وظيفة الثوب؟

ونعود إلى الحديث الشريف الذي نص على هذا الموضوع. قال صلى الله عليه وسلم:

﴿صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات.. لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها..﴾[3].

إنهن كاسيات إسماً، عاريات حقيقة، وذلك إما لشفافية الثياب وإما لضيقها بحيث تحجم أعضاء الجسد.

وهنا فقدت الثياب وظيفتها تماماً.. وهذا إنما ينتج عن فساد أصاب الفطرة.. لأن الفطرة السليمة تقتضي السعي لستر ما ينبغي ستره من الجسم. وتبتعد عن التعري الحيواني.

---

(١) سورة النحل [٨١].

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٢٩.

(٣) رواه أحمد، ومسلم.

والإسلام إذ يمنع ذلك، إنما يحافظ على إنسانية الإنسان، ويمنعه من لبس ثوب تظهر من خلاله حيوانيته وتغيب وراءه إنسانيته.

على أن الثياب الرقيقة الشافة ليست محرمة لذاتها، فإذا أمكن استعمالها بطريقة يتأدى بها الغرض المطلوب وفق الخط العام الذي يرسمه الإسلام فلا مانع من استعمالها.

ذلك ما نفهمه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه حيث قال: (كساني رسول الله ﷺ قبطية كثيفة ــ كانت مما أهدى له دحية الكلبي ــ فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله ﷺ: ما لك لم تلبس القبطية؟ قلت: يا رسول الله، كسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله ﷺ: مرها فلتجعل تحتها غلالة، إني أخاف أن تصف حجم عظامها) [١].

يتضح مما سبق أن ما حظره الإسلام، إنما كان في سبيل تحقيق الجمال، الذي يستند إلى قواعد وأسس بنيت على منهج عام.

والذين لم يدركوا ذلك، هم الذين لم يستطيعوا ربط الفروع بالأصول ولم يقفوا على تصور كلي للخط الجمالي في المنهج الإسلامي.

مفهوم خاطىء:

ذهب بعضهم إلى الاتجاه السلبي في موضوع اللباس، وظنوا أن الأخذ بمبدأ التقشف في هذا الأمر هو ما يطلبه الإسلام، فأخذوا أنفسهم بلبس الخشن من الثياب.. واعتبروا ذلك هو السنة، وتقربوا إلى الله تعالى بذلك.

وهم في مذهبهم هذا يحتجون بقول الرسول الله ﷺ وبفعله:

في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿البذاذة من الإيمان﴾ [٢].

---

(١) رواه أحمد، ومعنى كشفه: رقيقه، والغلالة: شعار يلبس تحت الثوب.

(٢) رواه أبو داود برقم ٤١٦١، وابن ماجه برقم ٤١١٨، وهو عند الإمام أحمد.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: (حج النبي ﷺ على رحل رث وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي ثم قال: اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة)[1].

وقبل مناقشة هذا الاتجاه، نحب أن نسجل بعض الملاحظات:

□ إن الخط العام الذي دعا إليه الإسلام هو ما سبق الحديث عنه، وهو العناية بنظافة الثياب وأناقتها ضمن حدود الإمكان بعيداً عن عوامل الكبر والتعالي.

وقد كان ﷺ يلبس ما وجده دون تكلف، وهذا ما سجله لنا كتاب الشمائل..

قال صاحب الشفاء: (.. فكان ﷺ يلبس ما وجده..)[2].

وقال ابن القيم: (إن هديه ﷺ في اللباس، أن يلبس ما تيسر من اللباس، من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة..)[3].

وما كان ﷺ يرغب بالأدنى إذا وجد الأحسن، إلا أن يكون هناك عامل آخر يدفع إلى اختيار الأدنى.

□ هذا الفهم هو ما ذهب إليه جمهور المسلمين، لوضوحه من سيرته صلى الله عليه وسلم.

جاء في زاد المعاد: دخل الصلت بن راشد على محمد بن سيرين، وعلى الصلت جبة صوف وإزار صوف، وعمامة صوف، فاشمأز منه محمد، وقال: أظن أن أقواماً يلبسون الصوف ويقولون: قد لبسه عيسى ابن مريم، وقد حدثني من لا أتهم أن النبي ﷺ قد لبس الكتان والصوف والقطن، وسنة نبينا أحق أن تتبع[4].

وللقرطبي في هذه المسألة كلام جميل ننقل بعضه: قال:

«روي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[5]، شيخ مالك، رضي الله

---

(١) رواه ابن ماجه برقم ٢٨٩٠. وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٢) الشفاء للقاضي عياض ٢٠٤/١.

(٣) زاد المعاد. بتحقيق الأرناؤوط ١٤٣/١.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٣/١.

(٥) هو زين العابدين رحمه الله.

عنهم أنه كان يلبس كساء خز بخمسين ديناراً، يلبسه في الشتاء، فإذا كان في الصيف تصدق به، أو باعه فتصدق بثمنه. وكان يلبس في الصيف ثوبين من متاع مصر ممشقين ويقول: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق).

وقد اشترى تميم الداري حلة بألف درهم كان يصلي فيها.

وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد.

وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار.

أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب ويقول: (ولباس التقوى ذلك خير) هيهات!! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى؟ لا والله! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهَى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبهم خالية من التقوى..

قال الطبري: ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله..»[1].

بعد هذه الجولة نعود إلى الحديث الأول، نحاول فهمه في ضوء الخط العام الذي أوضحناه. ويحسن بنا أن نثبت النص الكامل للحديث:

(عن أبي أمامة قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يوماً عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: ألا تسمعون، ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان، يعني التقحل).

وشرح ابن الأثير، مؤلف جامع الأصول: كلمة (البذاذة) فقال:

(البذاذة): رثاثة الهيئة، وترك الزينة، والمراد به: التواضع في اللباس، وترك التبجح به[2].

وقال ابن ماجه: البذاذة: يعني القشافة، يعني التقشف[3].

---

(١) تفسير (الجامع لأحكام القرآن) في تفسير الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

(٢) جامع الأصول ٤/٦٨٠.

(٣) سنن ابن ماجه ١٣٧٩/٢.

وقال في الإحياء: هو الدون من اللباس(١).

ومن شرح الكلمة يتبين لنا أن البذاذة لا تعني الثياب الوسخة، أو الثياب المرقعة أو الثياب الممزقة. وإنما تعني الثياب المتواضعة الثمن والتي ربما كانت خشنة الملمس.

ويبدو أن بعض الصحابة جذبهم الحديث عن الدنيا في مجلس رسول الله ﷺ، فأراد أن يردهم إلى جادة الصواب ويبين لهم أنه مما لا ينبغي للمسلم أن تستأثر الدنيا باهتمامه كله، وأن هذا الاهتمام ينبغي أن يكون ضمن حدود المنهج الإسلامي.

والحياة الدنيا ليست كلها على وتيرة واحدة، فهناك الفقر والغنى.. والإنسان ينبغي أن يوطن نفسه أن يتعايش مع كل منهما..

وترك الزينة مع القدرة عليها ترجع قيمته المعنوية إلى الباعث عليه، فإن كان البخل والشح.. هو الباعث فهذا مما ينكره الإسلام، وإن كان الدافع هو مواساة الآخرين الذين لا يقدرون على ثياب الزينة.. فذلك من الإيمان. وهو ما يذكرنا بفعل عمر رضي الله عنه عام الرمادة.. إذ منع نفسه من تناول الدهن مساواة لنفسه مع الفقراء من الناس.

ومن باب التربية العامة ينبغي للإنسان وإن كان قادراً على الرفاهية أن يأخذ نفسه بالخشن من الحياة بعض الأحيان، ومن ذلك ما ورد في الحديث (كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحياناً) (٢).

إن الحديث الشريف لا يخرج عن الخط العام، ولقد أخطأ الذين فهموا خطة اللباس كلها من خلال هذا الحديث، وأعرضوا عن جميع النصوص الأخرى وعن ما أثر عن الرسول ﷺ في أمر ملبسه، ولقد زاد هذا الخطأ سوءاً إذ انحرف أصحابه عن المعنى الذي ذكرناه (للبذاذة) فذهبوا إلى لبس المرقعات..

وقد بين أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله خطأهم فقال: «وأنا أكره لبس

---

(١) احياء علوم الدين ٣/٣٥٥.

(٢) رواه أبو داود برقم ٤١٦٠، وانظر جامع الأصول ٤/٦٧٩.

الفوط والمرقعات لأربعة أوجه:

أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة.

والثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه.

والثالث: إظهار التزهد، وقد أمرنا بستره.

والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة. ومن تشبه بقوم فهو منهم.

ثم قال: «فإن قال قائل: تجويد اللباس هوى النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق، وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق، فالجواب:

ليس كل ما تهواه النفس يذم، وليس كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو على وجه الرياء في باب الدين، فإن الإنسان يحب أن يرى جميلاً، وذلك حظ للنفس لا يلام فيه» (١).

* * *

وأما حديث حجة الرسول ﷺ، فذلك موضوع آخر، لا يمت إلى ما نحن فيه بصلة. إنه ضرب من جماليات هذا المنهج.

ونحب أن نبين منذ البدء أن «الرثاثة» التي أشار إليها الحديث بقوله (على رحل رث) هي البذاذة نفسها التي سبق الحديث عنها وقد بينا معناها. قال صاحب القاموس: الرثاثة: البذاذة.

إن الحديث يتناول هيئة الرسول ﷺ في مناسبة معينة هي الحج. والحج عبادة تقوم على الخضوع والتذلل لله تعالى بحيث يبلغ هذا الخضوع غايته، وما لباس الإحرام إلا بعض التعبير عن ذلك، حيث يتساوى الناس في شكل موحد من اللباس. يغيب الإنسان فيه، مهما كان شأنه في خضم تلك الموجات البشرية، التي تنازلت عن كل شيء يميزها عن الآخرين، إنه تجرد من اللباس والألقاب.. هناك حيث يختفي كل شيء ليظهر شيء واحد هو العبودية لله تعالى.

---

(١) عن تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي في تفسير الآية (٣٢) من سورة الأعراف.

إن هذا الموقف لا يصلح له إلا ذلك النوع من اللباس والرحل المتواضع، إنه التناسق الذي يقوم في طبيعة هذا المنهج..

وقد قلنا إن الخط العام أن المنهج يصعد الخط الجمالي في المناسبات التي يجتمع فيها الناس. وبينا ذلك في موضوع النظافة حيث يصل الخط ذروته في الحج، ولكنا في أمر اللباس لم نتكلم عن الحج، ذلك أن له ذلك الجو الذي يتطلبه من البعد عن الرفاهية، لا البعد عن النظافة إن التواضع سمة ضرورية لهذا الموقف.

وليس هذا الأمر قاصراً على الحج وحده، بل يلتقي معه في الاتجاه نفسه، مواقف أخرى لها تلك الخصائص ذاتها، منها صلاة الاستسقاء.

ومن أجل هذه الصلاة يخرج الإمام مع الناس إلى المصلى خارج البلد... متنظفين في ثياب بذلة، متواضعين.. بخلاف العيد..، ذلك بعض ما ورد في السنة بشأن هذه الصلاة، مما له ارتباط بموضوعنا.

إنه موقف آخر يتحقق فيه التناسق.. وصلاة الاستسقاء: تعني تعبير الناس عن ضعفهم وذلتهم واستكانتهم. وحاجتهم إلى رحمة الله تعالى، إنها تحتاج إلى مظهر يتناسب مع هذا المعنى.. فهي بخلاف صلاة العيد التي هي تعبير عن فرح وسرور..

وإذن: فنحن في أمر الحج أو أمر صلاة الاستسقاء.. بل وصلاة العيد ــ في الجانب الآخر ــ أمام التناسق التام الذي هو واحد من سمات الجمال [1].

وبالتالي فلا حجة في الحديث المذكور على ما استشهد به عليه.

جماليات المنازل:

وإذا كنا قد انتهينا من عرض موجز لمنهج الإسلام عن جماليات الجسم وجماليات الثياب، فإن ألصق مكان بالإنسان هو المنزل الذي يقيم فيه، أو الدار التي يسكنها.

ولا شك بأن الحرص على نظافة السكن أمر مهم، ولا يحتاج إلى نصائح

---

(١) انظر (الظاهرة الجمالية) ص ٢٣٠ حيث الحديث مفصلاً عن سمة التناسق.

وتوجيهات. ومع ذلك لا يهمل الإسلام هذا الجانب، بل يخصه بالتوجيهات التي ترقى به إلى المستوى الجمالي.

ويسير الخط الجمالي هنا على النسق نفسه الذي شاهدناه في صدد الحديث عن الجسم، طهارة.. ثم نظافة.. ثم جمال..

إن المنزل هو المكان الثاني للصلاة بعد المسجد، وطهارة المكان ضرورية للوصول إلى استكمال صحة شرائط الصلاة. وإذن فالحد الأدنى الدائم الذي ينبغي أن يتوفر في البيت المسلم هو عامل الطهارة الذي يعني، بداهةً: الخلو من الأقذار المستقذرة شرعاً.

ويضيف الإسلام بعد ذلك: الأمر بالنظافة، وإخراج القمامة من البيوت. فقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم:

(إن الله طيب يحب الطِّيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب في دورهم)[1]. الأكب: الزبالة.

ونلاحظ في الحديث أمراً عاماً بالنظافة وهو مفهوم من قوله: (نظيف يحب النظافة) ثم أمراً خاصاً بنظافة البيوت، وإخراج الزبالة منها.

فإذا تمت الطهارة والنظافة، فتلك أهم خصائص تحقيق الجمال. ومع ذلك فإن الأمر بتجميل البيوت داخل في عموم قوله ﷺ: ﴿إن الله جميل يحب الجمال﴾.

قال ابن القيم: ويدخل في الحديث بطريق العموم الجمال من كل شيء[2]. والمنازل والبيوت هي بعض من هذه الأشياء التي يحب الله أن تكون جميلة.

---

(١) سنن الترمذي كتاب الاستئذان والآداب باب ٧٤. وعزاه في زاد المعاد إلى مسند البزار. زاد المعاد ٢٧٩/٤ بتحقيق الأرناؤوط.

(٢) كتاب الفوائد. ابن القيم ص ٢٣٧.

جماليات المدن:

إن جماليات المدن تتركز في الدرجة الأولى بنظافتها، وقد أضحت نظافة المدن هي مظهر تقدم الأمم ورقيها، وقد تبارت الأمم في هذا الميدان في عصرنا الحاضر.. هذا في القرن الخامس عشر الهجري.

وإذا عدنا إلى الوراء أربعة عشر قرناً، يوم بعث النبي ﷺ، وحاولنا استطلاع تاريخ المدن في هذا المجال. لوجدنا أن هذا الجانب، قلما فُكر فيه، أو أعطي ما يستحق من الرعاية.

وجاء الإسلام ليشمل المدن بعنايته كما شمل كل جوانب الحياة، وإذا أمعنا النظر في الأمر المؤدي إلى نظافة المدن وجدناه يرجع إلى عوامل كثيرة منها:

١) نظافة الناس الذين يعيشون في هذه المدن.
٢) نظافة البيوت والأماكن التجارية.. التي تشكل هذه المدن.
٣) نظافة الطرق والممرات والمرافق العامة.

وقد سبق لنا الحديث عن الأمرين الأولين. وبينا عناية الإسلام بهما.. ولذا فإنا نتجه إلى العامل الثالث.

إن الأوامر العامة بالنظافة تعد كافية لتغطية هذا الجانب من جوانب الحياة، ولكن الإسلام على طريقته، في عموم تعاليمه وشمولها، قد خص هذه المرافق بأوامر خاصة بها.

فقد وردت أحاديث كثيرة في الحض على العناية بنظافة الطرق وإزالة الأذى عنها، وجعلت ذلك من جملة أعمال الخير التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ويبتغى بها الأجر والثواب.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له فغفر له﴾[1].

---

(١) متفق عليه. وهو عند البخاري في كتاب الأذان، باب ٣٢ وعند مسلم في كتاب البر برقم ١٢٧.

وجاء في حديث أبي برزة رضي الله عنه قوله: قلت: يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به قال: ﴿اعزل الأذى عن طريق المسلمين﴾[1].

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قوله: ﴿كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه، صدقه، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة﴾[2].

ففي هذه الأحاديث ــ وهي في الصحاح ــ حض على إماطة الأذى عن الطريق، ويلحق به ما في حكمه من المرافق العامة من ساحات وحدائق.

وإذا كانت الأحاديث تطالب المسلم بإماطة الأذى ورفعه عن الطريق ــ كل طريق ــ فهي من باب أولى، تطالبه بعدم إلقاء الأوساخ والأقذار في الطريق. فالإسلام حين يطالبك بأن ترفع ما ألقاه غيرك، فهو يطالبك ــ ومن باب أولى ــ بألا تلقي شيئاً من ذلك فيها.

والإنسان المسلم في كلا الحالين مأجور عند الله، سواء أكانت مساهمته في رفع الأذى عن الطريق، أم كانت بعدم إلقاء شي فيه لأن ذلك إماطة للأذى عن الطريق، ولكنها بطريق غير مباشر.

ولم يكتف الإسلام بهذا في شأن الحفاظ على نظافة الطرق، بل ارتقى بها إلى درجة أعلى، إذ جعلها من شعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق..﴾(٣).

وبهذا أضحى الحرص على نظافة المدن عملاً من أعمال الخير، بل أضحى شعبة من شعب الإيمان.

---

(١) رواه مسلم. كتاب البر ١٣١.
(٢) رواه البخاري. كتاب الجهاد، باب ١٢٨، وهوعند أبي داود في كتاب الأدب رقم ٥٢٤٣.
(٣) رواه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب ١٤.

وقد كان لهذا أثره الكبير في نظافة المدن الإسلامية، منذ فجر الإسلام وحتى وقتنا الحاضر، وقد سجل التاريخ صفحات ناصعة في هذا الشأن للمدن الإسلامية، في الوقت الذي كان غيرها من المدن في عالم من ظلام الأوساخ والأقذار[1].

وإذا كانت النظافة هي الحد الأدنى في كل جمال فقد كفل الإسلام هذا الحد كما رأينا، فضمن للمدن جمالياتها..

---

(١) سنذكر بعض الأمثلة على ذلك في الباب الثالث من هذا الكتاب ص ١٩٣.

الفصل الثالث
جماليات الهيئة

جماليات الشكل:

١) الشعر والأظافر
٢) الطيب

أفعال الهيئة:

١) النوع الأول
ـ العطاس.
ـ التثاؤب
ـ الجشاء

٢) النوع الثاني
ـ حسن السمت
ـ الأناة
ـ طلاقة الوجه



نعني بالهيئة: حال الإنسان التي يبدو فيها [1].

وهيئة الإنسان، هي مظهر جماله، وبيان حسنه، والناس يتعاملون مع الإنسان من خلال هيئته، إذ بها يعرفونه.

ويذهب اللباس بتحديد جزء لا بأس به من هذه الهيئة، على أن ما تبقى منها ـ وهو ما لم يحجبه اللباس، من الوجه أو الرأس واليدين والقدمين، أحياناً ـ هو المعول عليه في إعطاء الطابع الحقيقي لهذه الهيئة.

وفي حديثنا عن جماليات الهيئة سنتناول أمرين:

ـ الحديث عن الجماليات المتعلقة بالشكل.

ـ والحديث عن الجماليات المتعلقة بالفعل، إذ إن بعض الأفعال لها ارتباط وثيق بهيئة الإنسان.

والعناية بالهيئة أمر تدفع إليه الفطرة، ولكن ربما ضعفت هذه الفطرة بسبب بعض المؤثرات، مثل كبر السن، ولذا لم يدع الإسلام هذا الأمر لدافع الفطرة، بل عزره بدافع آخر هو اتباع السنة، وبهذا تكون العناية بها أمراً من أمور الدين.

جاء في تفسير القرطبي:

«روى مكحول عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوي لحيته وشعره. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه، فليهيء من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال» [2].

---

(١) قال صاحب القاموس: الهيئة: حال الشيء وكيفيته.

(٢) تفسير (الجامع لأحكام القرآن) في تفسير الآية [٣٢] من سورة الأعراف.

جماليات الشكل:

ويتركز الحديث عنها في الكلام عن: الشعر والأظافر، أما اللباس فقد مضى الحديث عنه في الفصل السابق، ويلحق بهذا القسم، العناية بالطيب، لما له من تأثير فعال في استكمال الجمال.

(١) الشعر والأظافر:

والشعر في رأس الإنسان مادة نامية، لا بد من العناية بها نظافة وتنظيماً، قصاً وتسوية، تمشيطاً وعطراً..

وقد وردت أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى..

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من كان له شعر فليكرمه﴾[١].

والإكرام هنا ليس إلا النظافة والتمشيط والتطييب، وأن يجعل في شكل تقبله الفطرة السليمة..

ويتحدث جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول: (أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلاً ثائر الرأس، فقال: أما يجد هذا ما يسكن به شعره؟)[٢]. إنه بيان لكرهه ﷺ لهذا المنظر، منظر الشعر المتفرق غير المرتب والممشط. كما هو لفتُ نظرٍ إلى سهولة فعل ذلك ويسره، فالمشط متوفر في كل بيت فلا أقل من النظر في المرآة قبل الخروج..

ويؤكد الرسول الكريم على هذا المعنى في مناسبات متعددة منها، ما رواه الإمام مالك عن عطاء بن يسار ــ مرسلاً ــ قال: (كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده، كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته، ففعل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم وهو ثائر الرأس كأنه شيطان)[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود. انظر جامع الأصول ٧٥١/٤.

(٢) أخرجه النسائي. انظر جامع الأصول ٧٥١/٤.

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ. جامع الأصول ٧٥١/٤.

وفي تشبيه فاعل ذلك بالشيطان، تنفير من الإهمال وحث على العناية بالهيئة، والبعد عن كل ما يؤذي الآخرين بمنظره.

والعناية باللحية، مثله مثل شعر الرأس، فينبغي تمشيطها وأخذ ما يسيء إلى منظرها من شعر مستطيل.. جاء في الحديث المتفق عليه: (وكان ابن عمر إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه)[1] أي قص منها ما زاد طوله عن قبضة[2].

وأما الشوارب فقد ورد الأمر بقصها، وقد سبق ذكر ذلك في سنن الفطرة.

وأما قص الأظافر فقد وردت به أحاديث كثيرة: وقد أشار بعضها إلى الحكمة من ذلك، حيث (يجتمع فيها الجنابة والخبث والتفث)[3] أي إن استطالة الأظافر واستقرار الأوساخ تحتها يمنع وصول ماء الغسل إلى البشرة بسبب تراكم الوسخ. والخبث والتفث هو الوسخ.

إن العناية بشعر الرأس وكذلك باللحية والشوارب، وبتقليم الأظافر، بين

(١) أخرجه البخاري، ومسلم. انظر جامع الأصول ٧٦٣/٤.

(٢) للعلماء رأيان في قضية الأخذ من اللحية. فذهب بعضهم إلى ضرورة تركها، ولا يؤخذ منها شيء تنفيذاً لحديث (وفروا اللحى).

وذهب فريق آخر إلى ضرورة الأخذ منها إذا طالت.

قال الإمام مالك رحمه الله: ولا بأس بالأخذ من طولها إذا طالت كثيراً بحيث خرجت عن المعتاد لغالب الناس. فيقص الزائد لأن بقاءه يقبح به المنظر وحكم الأخذ الندب [الفتح الرباني. ترتيب المسند، للبنا ٣١٤/١٧].

وذهب ابن حجر صاحب فتح الباري إلى مثل ذلك واحتج بفعل ابن عمر. قال: «قلت الذي يظهر أن ابن عمر كان لا يخص هذا التخصيص بالنسك. بل كان يحمل الأمر بالإعفاء على غير الحالة التي تشوه فيها الصورة بافراط طول شعر اللحية أو عرضه» وقال بأن هذا ما ذهب إليه الحسن البصري وعطاء وغيرهما.. [فتح الباري ٣٥٠/١٠ كتاب اللباس. باب تقليم الأظافر].

ومن المعلوم أن اللحية لو تركت وشأنها لساء منظرها. الأمر الذي يخالف المنهج الإسلامي العام الذي يطلب الجمال. وما ذهب إليه الإمام مالك وابن حجر وغيرهما هو ما ينبغي الأخذ به، والله أعلم.

(٣) رواه الإمام أحمد. انظر الفتح الرباني. ترتيب المسند ٣٢٠/١٧.

الفينة والفينة، وكلما دعت الحاجة.. هو استكمال لجمال الهيئة الذي يطلبه الإسلام ويحث عليه.

(٢) الطيب:

الجمال في بعض معانيه تلبية إيجابية للحواس، تبعث على السرور والسعادة.

وإذا كان المنظر الجميل تلبية لحاسة النظر، واللحن العذب تلبية لحاسة السمع، فإن لحاسة الشم جمالياتها التي تلبي بطريقة غير مسموعة أو منظورة، وما الورود والأزاهير في بعض معانيها إلا العطر الذي يلون النسيم بشذاه، فإذا هو بعض من زهر وبعض من عبير.

تلك هي بعض مهام الطيب..

إنه للهيئة بمكان العطر من الزهرة، فالزهرة عندما تفقد أريجها تتحول إلى ورد شبه صناعي ليس فيه من معاني الورد إلا الشكل والمنظر.

وهذا بعض السر الذي يفسر لنا ذلك السلوك العظيم من الرسول الكريم، حيث تحدث عن نفسه فقال: (حبب إلى الطيب..)[١].

وذلك هو المعروف من سنته العملية صلى الله عليه وسلم.

ويكفي الطيب رفعة، أن الهدي النبوي منع الإنسان أن يرده إذا أهدي إليه.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ إذا أتي بطيب لم يرده)[٢].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿من عرض عليه طيب فلا يرده، فإنه طيب الريح خفيف المحمل﴾[٣].

وإذا كانت الورود والرياحين هي المصدر الأول للطيب، فإنها تستحق

---

(١) أخرجه النسائي. انظر جامع الأصول ٤/٧٦٦.

(٢) أخرجه النسائي. انظر جامع الأصول ٤/٧٦٧.

(٣) أخرجه النسائي وأبو داود. جامع الأصول ٤/٧٦٧.

التكريم أيضاً. قال ﷺ: (من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه خفيف المحمل طيب الريح)[1].

قال النووي في شرح هذا الحديث: قال أهل اللغة وغريب الحديث في تفسير هذا الحديث: الريحان: هو كل نبت مشموم طيب الريح. ا. هـ.

أجل، هذا هو الصواب، فما الريحان إلا صنف من أصناف كثيرة من النباتات التي تحمل العطر إضافة إلى الورود والزهور.. فكل ما كان في معنى الريحان فله حكمه.

وفي الحديث دعوة إلى العناية بهذا النوع من النباتات، ولاستكمال بعض التفصيل لا بد من الحديث عن نقطتين:

■ **الأولى:** النظافة قبل الطيب:

قلنا إن المنهج الإسلامي في كل جمالياته يقوم على إزالة العيوب ثم السعي إلى التجمل بعد ذلك. وذاك هو المسلك في شأن الطيب أيضاً.

إن الطيب على الجسم الوسخ، وعلى الثوب القذر لا يفيد شيئاً، لأن الروائح الفاسدة ستبطل مفعوله، إذ ينتج خليط من الروائح يغلب عليه الفساد، ولذا بدأ الإسلام بطلب النظافة أولاً، والنظافة تحقق إزالة كل ما يكره من الروائح الخبيثة، وعندها سيكون للروائح الطيبة أثرها الكبير.

إن الطهارة والنظافة في سنة الإسلام أمران ملازمان للإنسان، ولهذا دعي إلى التعامل مع الطيب بشكل مستمر.

ومع ذلك، فإذا ما حدث عارض ما يبعث رائحة كريهة فينبغي التخلص منه، وهذا ما رأيناه في فعل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

قالت عائشة رضي الله عنها: (صنعت لرسول الله ﷺ بردة سوداء، فلبسها، فلما عرق فيها وجد منها ريح الصوف فقذفها)[2].

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٢٥٣.

(٢) رواه أبو داود برقم ٤٠٧٤.

إنه لا فائدة من استعمال الطيب، وهناك مصدراً آخر لرائحة سيئة.

■ **الثانية:** الطيب والمجتمعات:

والتصعيد الجمالي في أمر الطيب، شأنه شأن الطهارة والثياب، وكلما عظم حجم المجتمع كان الأمر أوكد.

في صلاة الجماعة اليومية ورد التأكيد المتتابع على الإبتعاد عن كل الروائح السيئة، وتلك هي الدرجة الأولى في تحقيق الجو النظيف، فقد نهى النبي ﷺ كل من أكل توماً أو بصلاً عن حضور المسجد، ذلك أن هذين النوعين من الطعام مصدر ومبعث للروائح الكريهة.

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال في الثوم: (من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا)[١].

ويرد التعليل لهذا المنع في رواية أبي هريرة. قال ﷺ: (من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مسجدنا ولا يؤذينا بريح الثوم)[٢].

وليست القضية قاصرة على الثوم، وإنما الثوم نموذج لهذه الأنواع من المأكولات.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من أكل ثوماً أو بصلاً، فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا).

وفي رواية أخرى (من أكل البصل والثوم الكراث فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى بما يتأذى منه بنو آدم)[٣].

وتشير الرواية الثانية إلى أن الملائكة تتأذى من ذلك... وهذا تأكيد آخر للنهي.

والذي يبدو أن بعض الصحابة حمل هذا النهي على محمل استحسان البعد عن

---

(١) متفق عليه. انظر جامع الأصول ٤٤٢/٧.

(٢) رواه مسلم. جامع الأصول ٤٤٢/٧.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي. انظر جامع الأصول ٤٤٠/٧.

ذلك، فكأنهم لم يلتزموا بذلك، الأمر الذي احتاج إلى بيان أوضح. توضحه رواية عمر رضي الله عنه حيث قال: (.. ولقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحها ــ أي ريح البصل أو الثوم ــ من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع..)[1].

نستطيع القول بعد هذا: إن قضية النظافة من الروائح الكريهة من أجل حضور صلاة الجماعة في المسجد أمر واجب. وتغيب من أصاب من ذلك شيئاً أفضل من حضوره، لأنه ينفذ أمر الرسول الكريم في البعد والاعتزال.

وليس ذلك قاصراً على الأكل، بل ينبغي أن نقيس عليه كل ما يؤذي من الروائح.

إن الجزار الذي يحضر إلى المسجد بثياب مهنته ليس أقل، من حيث سوء رائحته ــ من الذي أكل البصل أو الثوم. وكذلك «الدَّهان» الذي يعمل في طلاء الجدران..

إن هؤلاء وأمثالهم ينبغي أن تكون صلاتهم في بيوتهم، إذا لم تتح لهم طبيعة عملهم تغيير ملابسهم وتنظيف أجسامهم لحضور الجماعة.

ذلك هو الحد الأدنى؛ نظافة من الروائح الكريهة في الجماعة اليومية. فإذا كانت الصلاة صلاة جمعة، أو صلاة عيد، حيث يكثر العدد، فإن المنهج يضيف إلى الأمر السابق أمراً آخر هو المطالبة باستعمال الطيب، وقد سبق ذكر بعض ذلك. والملاحظة التي تلفت النظر حقاً، أن أكثر الأحاديث التي أمرت بالغسل يوم الجمعة قد قرنت إلى ذلك الأمر بالطيب.

قال ﷺ «غسل يوم الجمعة على كل محتلم، وسواك، ويمس من الطيب ما قدر عليه» وفي رواية قال في الطيب (ولو من طيب المرأة)[2].

وشأن العيد مثل الجمعة.

---

(١) رواه النسائي. جامع الأصول ٤٤٤/٧. وقال في رياض الصالحين رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم. جامع الأصول ٣٢٣/٧.

والحج ــ بعد ذلك ــ هو الموسم العظيم، وعلى الرغم من أن الحج ــ كما سبق القول ــ هو مناسبة تقشف وتذلل، فإن قضية الطيب ظلت سارية على الأصل، فإنه لم يمنع إلا في حالة الإحرام، بل جاءت السنة تبين أنه لا مانع من التطيب قبل الإحرام مع بقاء أثره بعد ذلك، كما يطلب الطيب بعد الإحرام..

بهذا المسلك الفواح ينشد الإسلام ذلك الجو العطر[1].

* * *

جسم كامل الطهارة، كامل النظافة.

ثياب، أنيقة جميلة

شعر.. استوفى حقه من العناية والإكرام

عطر يزين كل ذلك برائحته

تلك هي معالم الهيئة التي يطلبها الإسلام.

أفعال الهيئة:

ونقصد بها تلك الأفعال التي تصدر عن الإنسان، ولها صلة بهيئته العامة.

وهذه الأفعال منها أفعال سلبية في جمالها تحتاج إلى اتخاذ الوسائل لإخفائها أو سترها، ومنها أفعال إيجابية يحسن أن يعوّد الإنسان نفسه عليها ليستكمل جمال هيئته.

وهذه الأفعال ذات صلة أخرى بمعالم الشخصية الإنسانية، فهي تتعلق بالآداب العامة.. أو السلوكيات الجمالية.. ولكنها ذات صلة وثيقة بسمت الإنسان وهيئته فآثرت أن تكون في هذا الفصل.

(١) النوع الأول:

إنها أفعال تصدر عن الجسم، لا يحسن أن تترك وشأنها، لأنها تعطي صورة شائهة لهيئة الإنسان وقد اتخذ الإسلام الوسائل التجميلية للقضاء على ما تكون عليه من قبح غالب الأحيان.

---

(١) من المعلوم أن للمرأة أحكاماً خاصة في شأن الطيب. لا يتسع المجال لذكرها.

ونستطيع أن نذكر منها: العطاس والتثاؤب والجشاء.

أما **العطاس،** فهو أمر لا إرادي، لا يد للإنسان في كفه ومنعه، وقد أرشد الإسلام إلى الوسيلة التي تجعل صاحبه لا يخل بالآداب الاجتماعية، فقد أمر العاطس بأن يضع يده، أو منديله، على فمه، وإذا أمكن أن يحول وجهه عن المجلس الذي هو بحيث لا يكون في مواجهة الآخرين فذلك خير، وبهذا السلوك يمنع خروج الرذاذ أو يمنع وصوله إلى الآخرين، كما يكون منه خفض للصوت.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده، أو ثوبه على فيه وغض بها صوته)(١).

إنه تعديل جمالي لهذا الفعل.

وأما **التثاؤب** فحركة يبعثها الكسل، حيث يفتح الإنسان فمه فتحة كاملة أو شبه كاملة، وربما قال آه آه، كما هو مشاهد.

وإزاء هذا المنظر غير المستحسن يرشد الرسول الكريم إلى إخفائه، وذلك بوضع اليد على الفم.

قال ﷺ: ﴿إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه﴾(٢).

والتثاؤب غير العطاس، إذ يستطيع الإنسان أن يتخذ من الأسباب ما يرد به هذا التثاؤب، وهذا ما أرشد إليه الهدي النبوي الكريم فقد جاء في الحديث الشريف (فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، ولا يقل هاء هاء..)(٣).

وبهذا المسلك يستر هذا المنظر..

وأما **الجشاء،** فهو كما قال صاحب القاموس: تنفس المعدة. وهو ناتج عن الشبع الكامل الذي تمتلىء به المعدة، وهذه الطريقة في الأكل مخالفة للسنة.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (تجشأ رجل عند النبي ﷺ فقال: كف

---

(١) رواه أبو داود برقم ٥٠٢٩، وهو عند الترمذي أيضاً.

(٢) هذه رواية الترمذي، وهو أيضاً عند مسلم وأبي داود. جامع الأصول ٦/٦٢٤.

(٣) رواه أبو داود برقم ٥٠٢٨.

عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة)[1] وكف الجشاء يمكن أن يكون بوضع اليد على الفم وتحويل الوجه.

ورواية أبي جحيفة تلقي ضوءاً كافياً على التصرف الصحيح لكف الجشاء، حيث قال: تشجأت عند رسول الله ﷺ فقال: (أقصر عنا من جشائك. إن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا) قال: فما شبعت بعد[2].

تلك نماذج من أفعال الهيئة التي يحسن تداركها بفعل آخر أو بالقضاء على أسبابها محافظة على جمال الهيئة.

(٢) النوع الثاني:

أفعال جمالية ترشد الشريعة إلى العمل بها، نكتفي بذكر نماذج منها تكون مثالاً لما شابهها.

ونحن نتكلم في هذه الفقرة عن: حسن السمت، والأناة، والوجه الطلق.

أما **حسن السمت**، فقد ورد ذكره في عدد من الأحاديث الشريفة منها قوله ﷺ: ﴿السمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة﴾[3].

وقد فسر ابن الأثير السمت: بأنه حالة الرجل وهيئته ومذهبه.

وهذا يعني: الهيئة الحسنة من حيث الشكل ومن حيث التصرف، وقد عنون أبو داود لهذا الحديث فقال (باب في الوقار) وهو الموقف إزاء القضايا بحكمة وعقل ورزانة. بل إن السمت الحسن يتناول الأسلوب الذي يتبعه الإنسان في مشيته، ونذكر مثالين لبيان حسن السمت:

---

(١) أخرجه الترمذي. جامع الأصول ٤٠٩/٧.

(٢) جامع الأصول ٤٠٩/٧ قال في الحاشية: رواه الحاكم وصححه.. ورواه البزار باسنادين: رواة أحدهما ثقات.

(٣) رواه الترمذي. جامع الأصول ٦٩٠/١١. قال ابن الأثير: ومعنى: جزء من النبوة: أن هذه الخلال من شمائل الأنبياء، ومن جملة الخصال المعدودة من خصالهم.. وليس معنى الحديث أن النبوة تتجزأ.

والاقتصاد: سلوك الأمر في القصد أو التوسط في الأمور.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا) (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: (أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع) هذه رواية البخاري وعند مسلم (فما زال يسير هينة حتى أتى جمعاً) (٢).

إن السمت الحسن هو المظهر الجميل يرافقه سلوك يزينه السكينة والوقار، في حيوية ونشاط بعيداً عن الكسل والخمول.

وأما **«الأناة»** فهي التؤدة والهدوء والتروي، في الأمور التي يحسن فيها ذلك.

وهي من حسن السمت، ولكنا نخصها بالذكر للتأكيد عليها، كما ورد ذكر معناها في الحديث السابق بعد ذكر (السمت الحسن).

ونحب أن نتعرف على معناها من خلال حديث الرسول ﷺ لأشج عبد القيس (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة) (٣).

وسبب ذلك: أن وفد عبد القيس لما وصلوا المدينة، بادروا إلى النبي ﷺ يسلمون عليه، وقد تركوا رواحلهم، ولكن الأشج، أقام عند رحالهم فجمعها وعقل الإبل ولبس أحسن ثيابه ثم أتى النبي ﷺ فسلم عليه.

إنها الأناة التي يحبها الله تعالى، ذلك المسلك الذي يكون للإنسان فيه روية يتدبر فيها الأمر فيتجنب الخطأ منه وينفذ الصواب.

وأما **«طلاقة الوجه»** فهي انبساطه وبشاشته، وأن تعلو الابتسامة شفتيه.

إنها من أساسيات جمال الهيئة، حيث يبدو الوجه ببهائه والنفس بصفائها.

---

(١) متفق عليه، كما جاء في رياض الصالحين.

(٢) انظر جامع الأصول ٣/٢٤٨ والإيضاع هو الاسراع.

(٣) رواه مسلم والترمذي. جامع الأصول ١١/٦٩١.

ولقد حرص الإسلام على أن تكون هذه الصفة من الصفات الملازمة للإنسان، لأنها تعبير عن السماحة والرضى النفسي.

وفي سبيل ذلك جعل هذه الطلاقة من جملة أعمال الخير التي يثاب عليها الإنسان. ذلك ما نسمعه في قوله صلى الله عليه وسلم.

﴿لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق﴾[(١)].

وقد تأكد هذا المعنى أكثر من مرة في أحاديث أخرى منها قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿تبسمك في وجه أخيك صدقة﴾[(٢)].

وبهذا يصبح الشكل الجمالي الذي ينبغي للإنسان أن يحرص عليه دون دافع ما، يصبح عملاً يؤجر عليه.

وعندما يتقابل الناس بهذه الابتسامات التي تعبر عن صفاء النفوس وصدق الأخوة، فسوف نحس بجمال رائع لا يعرفه علم الجمال، وإنما تعرفه النفوس الطيبة، لأنها هي التي تنتجه.

إن «الوجه الطلق» استكمال للهيئة الجميلة التي يريدها الإسلام. ويسعى دائماً إلى بنائها.

* * *

بهذا نكون أمام تصور عام لجمال الهيئة:

إنها المظهر الذي يحمل في طياته الطهر والنظافة وفي ظاهره الحسن والبهاء، وفي سلوكيته حسن السمت والأناة وطلاقة الوجه...

إنها معطيات يتمم بعضها بعضاً لتصوغ الجمال المنشود..

---

(١) رواه مسلم. جامع الأصول ٤٢٧/١.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه [عن الترغيب والترهيب: كتاب الأدب. الترغيب في طلاقة الوجه].

الفصل الرابع
جماليات الكلام

- جماليات الصوت.
- جماليات الحديث.



لن يكون حديثنا في هذا الفصل عن البلاغة وفن الكلمة، وإنما هو الحديث عن «القول» الذي يتعامل به الإنسان مع الناس الذين يلتقي بهم باعتباره وسيلة التفاهم بينه وبينهم.

و«الكلام» بهذا المعنى جزء من شخصية الإنسان، التي يتعرف بها إلى الناس.

إن كلام الإنسان هو الذي يحدد معالم شخصيته، إذ به تعرف استقامته، وصدقه، وأدبه..

وبه يكون خفيف الروح، أو ثقيل الظل.

وبه يكون مهذباً لبقاً، أو فظاً غليظاً.

وبه يكون ذا وجه واحد، أو ذا وجهين.

بل به تكون كلمة الإيمان أو كلمة الكفر.

إنه الترجمان الذي يكشف عما في النفس، والشاهد الذي يفصح عما في الضمير..

ولذا، فالكلام هو الكاشف الذي يحدد قدر الإنسان ومكانته، إيجاباً أو سلباً، فالساكت معدن مجهول فإذا تكلم كان ذهباً أو تبراً وربما كان حديداً أو قاراً.. وقد قال أبو حنيفة النعمان يوماً: آن لأبي حنيفة أن يمد رجله[1].

وقد قال بشر بن منقذ في مكانة الكلام من الإنسان:

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم

---

(١) يذكر أن رجلاً ذاهيبة ووقار دخل على أبي حنيفة النعمان ــ رحمه الله ــ وكان مادا رجله، فلما رآه أبو حنيفة أصلح من جلسته وأكرمه، وقد ظنه من أهل العلم، فسأل الرجل أبا حنيفة سؤالاً عرف به جهله المطبق، فقال حينئذ كلمته: آن لأبي حنيفة أن يمد رجله.

لسان الفتي نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وإذا كان الأمر كذلك، فما كان باستطاعتنا أن نغفل الحديث عن هذا الجانب، ونحن نتحدث عن جماليات الإنسان في ظاهره.

وفي حديثنا عن جماليات القول نتناول أمرين:

ـ الحديث عن طريقة القول «الصوت».
ـ الحديث عن القول ذاته.

(١) الصوت:

□ إن ارتفاع الصوت أو انخفاضه تحدده وضعية المخاطب أو المخاطبين، من حيث العدد، والقرب أو البعد.. والأصل أن يكون ارتفاع الصوت بقدر الحاجة بحيث يسمع المخاطب.

ورفع الصوت بلا داع يعد من الخروج على الآداب العامة، الأمر الذي يذهب بجمال القول، بل إنه يعد حينئذٍ من القبح.

ولِما لهذا الأدب من أثر في التعامل بين الناس، تناوله القرآن الكريم في المرحلة المكية، فقد جاء في سورة لقمان قوله تعالى:

﴿..واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾(١).

قال ابن كثير: أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)... أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه،.. وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم(٢).

وإذن: فينبغي الحرص على الاعتدال والقصد. وأن يكون الصوت بحيث يسمع المخاطب.

□ ومما يطلب في أمر الصوت أيضاً، أن يصدر بدون تكلف. إذ «التقعر في

---

(١) سورة لقمان. الآية [١٩].
(٢) تفسير ابن كثير. في الآية المذكورة.

الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالمقدمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة. كل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت» (١).

قال صلى الله عليه وسلم:

﴿.. وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدقون والمتفيهقون (٢)﴾ (٣).

وقال صلى الله عليه وسلم:

﴿إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة﴾ (٤).

فالغاية، هي البعد على التكلف الممقوت الذي يجعل من الصوت نشازاً سيئاً.

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن بلاغة القول وفصاحة العبارة أمر مطلوب، وليس هو من باب التشدق في الكلام، فما ورد في الحديثين السابقين إنما يتناول أسلوب اللفظ المتعلق بكيفية إخراج الحروف والتي يريد قائلها أن يظهر بمظهر المتعالي تكبراً وارتفاعاً، إظهاراً لفضيلته على غيره..

□ ونستطيع القول بأن الإسلام يحرص على تجميل الصوت، تمشياً مع منهجه العام في طلب الجمال، ومن أكبر الميادين التي يطلب فيها هذا الجمال هو قراءة القرآن، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الصدد نذكر منها:

قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿زينوا القرآن بأصواتكم﴾ (٥).

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/١٢٠.

(٢) قال في النهاية: الثرثار الذي يكثر الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق. والمتشدق المتوسع في الكلام من غير احتياط واحتراز وقيل المستهزىء بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم، والمتفيهق: الذي يتوسع في الكلام ويفتح فاه به.

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٠١٨.

(٤) رواه الترمذي برقم ٢٨٥٧.

(٥) رواه أبو داود والنسائي. جامع الأصول ٢/٤٥٤.

وأخرج أبو داود عن عبيد الله بن أبي يزيد قال سمعت ابن أبي مليكة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال يحسنه ما استطاع[1].

وقد تكفل علم التجويد بإنجاز جزء من هذه المهمة، فإن القراءة الصحيحة التي تتوفر فيها عوامل ضبط مخارج الحروف تسهم في تحسين الصوت بشكل ملحوظ.

(٢) الحديث:

كان ذلك حديثاً عن اللفظ، ونتحدث عن القول.

إن الله تعالى طلب من عباده أن يقوم التعامل بينهم على أساس من القول الطيب فقال: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾[2]، ذلك أن حسن القول يجعل النفوس في صفاء وود، وتعاون ومحبة، الأمر الذي يبعد الشيطان عن التدخل بينهم، وإذا بعد الشيطان انتفت عناصر الفساد، وهذا ما نجده واضحاً في قوله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن، إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾[3]. وما الحسن الذي يطلبه القرآن هنا إلا الجمال المنشود.

وجماليات القول أو المحادثة لا تخرج عن قواعد المنهج العامة، فلا بدّ لاستكمال الجمال من تحقق السلامة من العيوب، فإذا حدث هذا أمكن الارتقاء في السلّم الجمالي.

وقبل الحديث عن العيوب التي ينبغي الابتعاد عنها، ينبغي أن نحدد مواصفات القول الأساسية والتي لا بد منها.. وتتلخص هذه المواصفات بذلك الخط المستقيم الذي هو عمدة القول ألا وهو «الصدق».

والصدق ــ كما هو معلوم ــ هو مطابقة الواقع، وهذه أساسية تستكمل وجودها

---

(١) رواه أبو داود برقم ١٤٧١.
(٢) سورة البقرة. الآية ٨٣.
(٣) سورة الإسراء الآية ٥٣.

في تعاليم الإسلام بشرطين.

الأول: التوافق بين القول والفعل، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[1].
وقد ذم الله تعالى الشعراء وأبان لنا سبب ذلك فكان منه، ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾[2].

الثاني: التوافق بين القول والاعتقاد. وعدم وجود هذا التوافق يؤدي إلى خلل كبير يتحول به صاحبه إلى النفاق. إن المنافق قد يقول الكلمة الصادقة المطابقة للواقع، ولكنه لا يعتقدها ومن هنا يدخل الفساد وهذا ما وضحته الآية الكريمة التي بينت أن المنافقين يعلنون شهادتهم للنبي ﷺ بالرسالة ولكن الله يكذبهم لعدم التوافق بين ما يقولون وما يعتقدون. قال تعالى:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[3].

إن تحقق هذين الأمرين هو الذي يحقق الصدق الذي يحرص عليه الإسلام.

أما العيوب التي ينبغي الابتعاد عنها، في مجال القول والمحادثة مع الآخرين فهي كثيرة كثيرة نقتصر على تعداد بعضها، تمشياً مع طريقة البحث في الحرص على عدم الإطالة.

فمن هذه العيوب[4]:

- الكلام فيما لا يعني الإنسان.
- إطالة الحديث فيما يمكن اختصاره، وهو فضول الكلام.

---

(١) سورة الصف. الآيتان [٢، ٣].

(٢) سورة الشعراء. الآية ٢٢٦.

(٣) سورة المنافقون. الآية ١.

(٤) ارجع في تفصيل هذه العيوب إلى:
- رياض الصالحين.
- الترغيب والترهيب.
- احياء علوم الدين.

ـ الخوض في الباطل.

ـ المراء والجدال.

ـ المخاصمة.

ـ السب وبذاءة اللسان.

ـ اللعن.

ـ ما فيه سخرية واستهزاء بالناس.

ـ الكذب ويدخل فيه الوعد الكاذب، والمزاح الذي يقوم على الكذب.

ـ ذو اللسانين الذي يوافق المتعاديين، كلاً بما يناسبه.

ـ الغيبة.

ـ النميمة.

ـ ...

وقد أجمل الحديث الشريف كل ذلك بقوله ﷺ: ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت﴾[1].

وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: ﴿المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾[2].

فإذا ابتعد الإنسان عن هذه العيوب ولزم الصدق بالمفهوم الذي تحدثنا عنه فذلك هو الجمال.

ومع هذا يظل الباب مفتوحاً للسعي إلى الرقي الجمالي في هذا الجانب ومن وسائل التصعيد الجمالي:

ـ مخاطبة الناس على قدر عقولهم. إذ الغاية أن يفهم من تخاطبه ما تريد منه، وحين لا يتوفر هذا الأمر يذهب جمال المحادثة.

ـ الحرص على الكلمة الطيبة مع كل الناس. وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: (والكلمة الطيبة صدقة)[3].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

قال القرطبي في تفسيره: «هذا حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر والسني والمبتدع من غير مداهنة»[1].

(١) في تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة.



القسم الثاني

جماليات الباطن



بعد تلك الجولة القصيرة مع تجميل ظاهر الإنسان، ننتقل إلى الحديث عن تجميل باطنه.

وتحديد «الباطن» ليس أمراً سهلاً، ولكنا نقول: إنه الجانب الآخر من الإنسان، والذي هو في مقابل ظاهره.

وقد تنوعت عبارة العلماء بصدد الحديث عنه، ومعظمهم يجعل كلمة «الأخلاق» مساوية لكلمة «الباطن»، وعلى هذا فجمال الباطن يعني جمال الأخلاق.

على أننا إذا أمعنا النظر، رأينا ذلك التعقيد الشديد في تكوين باطن الإنسان.. الذي يرجع إلى عوامل كثيرة لا تكاد تحصى. ومن أهمها:

العقل.

والعلم.

والأخلاق.

فالعقل أداة التفكير.

والعلم وسيلة ثقافة هذا العقل.

والاخلاق هي السلوك العملي الفاضل، الذي يساعد عليه كل من العقل والعلم.

ونتحدث عن كل منها في فصل خاص به.



الفصل الخامس

جماليات الفكر

- مهمة القتل
- ميدان العمل
- جماليات الفكر



يوصف الإنسان الفاضل بـ«العقل» فيقال: رجل عاقل. ذلك أن الإنسان إنما كرم بهذا العقل، وبه ميز على غيره من المخلوقات.

ومن أجل الوقوف على جماليات العقل، لا بد من استطلاع عام نتعرف به على مهمته، وعلى ميدان هذه المهمة، والحدود التي ينبغي الوقوف عندها وعدم تجاوزها.

مهمة العقل:

ومهمة العقل أن يعمل ــ ضمن حدوده ــ في حرية وانطلاق، بعيداً عن المؤثرات والعوامل التي قد تتعاظم في بعض الأحيان حتى تؤدي إلى تعطيله عن العمل كلياً. وهذه العوامل هي من صنع الإنسان نفسه، ولذا وصف الذين يعطلون عقولهم بأنهم كالأنعام، بل هم أضل لأن الأنعام لم تعط العقل، وأعطيه الإنسان فعطله.

والعقل إنما يعمل عن طريق الحواس التي تصله بالعالم الخارجي، فهي النوافذ التي يطل منها على الحياة، وفي مقدمتها السمع والبصر.

وكثير من الناس قد تبلد حسّهم بسبب سوء طويتهم، فأغلقوا تلك النوافذ.. وتعطل الفكر عن الإدراك.. فهم لا يتعظون عند رؤية ما يتعظ به، ولا يعتبرون عند رؤية ما يعتبر به، ولا يتديرون ما يسمعون.. أولئك الذين تحدث الله تعالى عنهم فقال:

﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

---

(١) سورة الحج. الآيتان [٤٥-٤٦].

﴿ .. أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾(١).

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾(٢).

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾(٣).

إنه الإصرار على تعطيل العقل، الذي جعلهم في مصاف الحيوان في الدنيا.. وآل بهم إلى الهلاك في الآخرة..

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٤).

والمنهج الإسلامي ــ في سبيل أن يقوم العقل بمهمته ــ بين لنا الأسباب التي تؤدي إلى تعطيله، حتى يحذرها الناس، وجعلها من المحرمات كي يبتعدوا عنها.

وهذه الأمور ــ المعطلة ــ منها ما هو حسي، ومنها ما هو معنوي:

أما الحسي: فهو كل تلك المشروبات التي تذهب بالعقل من خمور ومخدرات.. وما شابه ذلك.. وقد حرم الاسلام كل ذلك.

وأما المعنوي: وهو الأكثر خطراً، والأبعد أثراً، فإنا نقف عنده لنتناوله بشيء من التفصيل. فمن ذلك:

(١) التأثر بالآباء والأجداد:

لا شك أن للبيئة أثرها في بنيان الشخصية الإنسانية، ولكن الأمر الذي يرفضه الإسلام أن يصل هذا التأثر بها إلى درجة إلغاء دور العقل كلية، وتعطيله عن ممارسة مهمته.

---

(١) سورة المؤمنون. الآية [٦٨].
(٢) سورة الفرقان. الآيتان [٤٣-٤٤].
(٣) سورة محمد. الآية [٢٤].
(٤) سورة الأعراف الآية [١٧٩].

وقد تتابعت الأمم على انتهاج هذا المسلك، مما أدى إلى تكبيد الأنبياء الكثير من المشقات، وكان ذلك عقبة كأداء في سبيل الإصلاح الذي دعا إليه جميع المرسلين.

وما قوم إبراهيم عليه السلام إلا النموذج للأقوام المتتابعة، فقد جاء من خبرهم:

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين.. ﴾[1].

وتحدث القرآن عن المشركين الذين بعث فيهم محمد ﷺ فقال:

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[2].

إنه المسلك الذي يلغي العقل، ومع وضوح فساده، فقد كان هو السبيل الذي تعاقبت عليه الأمم، وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة المتكررة بقوله:

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.. ﴾[3].

إنه لكي يقوم العقل بدوره، فلا بد أن يحذر هذا المسلك.

(٢) التكبر:

الكبر عامل نفسي شديد الشراسة، وعندما يستقر في النفس، فإنه لا يلغي عمل العقل وحسب، وإنما يلغي كل فضيلة في هذا الإنسان.

إنه إصرار على الباطل، وغمط للحق، وانتفاخ خبيث.. وقد وضح القرآن الكريم مسلك المتكبر في كثير من آياته، ومن ذلك:

﴿ ويل لكل أفاك أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصر مستكبرا كأن لم

---

(١) سورة الأنبياء [٥١-٥٣].

(٢) سورة البقرة [١٧٠].

(٣) سورة الزخرف [٢٣].

يسمعها، فبشره بعذاب أليم﴾[1].

﴿.. وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم﴾[2].

والكبر مرض جعل الله عدم الاهتداء إلى الحق من لوازمه، وهي عقوبة تتناسب مع هذا الذنب. قال تعالى:

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾[3].

وحتى يعمل العقل إذن، فلا بد من علاج هذا المرض.

(٣) الضعف:

والضعف هنا ليس ضعف الجسم وإنما هو ضعف النفس، حيث يسلس كثير من الناس قيادهم إلى غيرهم، فيوكلوا إليهم مهمة التفكير عنهم.. ثم هم يصدرون بعد ذلك عما يقال لهم.

وقد يكون ذلك لضعف قائم في ذاتهم.. وقد يكون ذلك أملاً فيما عند غيرهم من دنيا..

وأيا كان السبب فإن القرآن الكريم لم يعذرهم، ذلك أن تعطيل الفكر يعني التنازل عن الإنسانية في شخص هذا المخلوق.. وبعد ذلك لن يبقى له إلا الحيوانية في ذلك الكيان.

وقد أورد القرآن الكريم مشاهد كثيرة من مواقف «التبع» مع «السادة» تبين فداحة الخسارة في موقفهم..

﴿.. وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء، قالوا: لو هدانا الله لهديناكم..﴾[4].

---

(١) سورة الجاثية [٧-٨].
(٢) سورة لقمان [٦-٧].
(٣) سورة الأعراف [١٤٦].
(٤) سورة إبراهيم [٢١].

وهذا الصنف من الناس هم الذين سماهم الرسول ﷺ «إمَّعة» ونهى عن مسلكهم. فقال:

﴿لا تكونوا إمَّعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا﴾[1].

إن «الإمعة» إنسان عطل عقله وأسلس قياده لغيره، لأنه لا رأي له..

تلك هي أهم عوامل تعطيل العقل، وحتى ينهض لأداء مهمته، كان لا بد له من أن يتحرر منها حتى يبدأ العمل.

ميدان العمل:

وبعد أن تحرر العقل، وتخطى تلك العقبات، ننتقل إلى الحديث عن ميدان عمله.

وتحديد هذا الميدان ضروري حتى لا تتبدد الطاقات، وتذهب هدراً، والواقع الذي لا مرية فيه يقرر وجود عالمين: عالم الغيب، وعالم الشهادة.

والأول: هو العالم المغيب عنا، والذي تقصر حواسنا عن إدراكه.

والثاني: هو العالم المشاهد الذي نحسّه ونعيشه.

وقد استبعد المنهج الإسلامي أن يكون (عالم الغيب) مرتعاً للعقل الإنساني، ذلك لأن قدرته ليست مهيئة للعمل في هذا العالم، وقد جرب العقل نفسه في هذا المرتع فكان نصيبه الفشل الذريع.

ومع ذلك فإن الفكر كثيراً ما يطرح أسئلته حول هذا العالم.. يتساءل عن الموت، وعما بعد الموت؟ عن نهاية الإنسان، وعن نهاية العالم؟ عن المصير والغاية..؟

والإجابة على هذه الأسئلة ليست خاضعة للتجربة.. وكل مجهود يبذل في سبيلها.. فهو جهد ضائع.

---

(١) رواه الترمذي في السنن. كتاب البر والصلة. باب ٦٣.

ولذا كان منع العقل من ولوج هذا العالم، رأفة به أن تبدد قواه.

وتلبية لأشواقه في معرفة هذا الغيب أعطاه المنهج كل الحقائق التي تلزمه، وهي مسلمات إيمانية قام الوحي بنقلها إلى الأنبياء.. وعن طريقهم وصلت إلى الناس.

وبهذا يتحقق للعقل ما يريده من المعرفة ـ وهي هنا معرفة يقينية ـ دون الدخول في متاهات لا نهاية لها.

وبهذا «تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال من التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به.

إن عدم إدراك العقل للمجهول، لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وإن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة..» [1].

* * *

وإذن: فميدان عمل الفكر هو عالم الشهادة. حيث التعرف على نواميس الكون، وحيث النظر والبحث، والتقصي والتجريب والإبداع والابتكار في عالم المادة.

وهذا العالم ـ عالم الشهادة ـ هو الميدان الذي تبنى به العقيدة البناء الصحيح، وكم ألحت الآيات القرآنية على التفكر في خلق السماوات والأرض.. وفي كل ما خلق الله.. في الإنسان والحيوان والنبات والجماد.. في الجبال والشجر والزرع.. هذا التفكير الذي يضع العقل أمام عظمة الخالق سبحانه.. ومن هنا كان التفكير عبادة من أفضل العبادات في مجال التعرف على عظمة الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء..﴾ [2]؟؟

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٠.

(٢) سورة الأعراف. الآية: ١٨٥.

وقال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿ .. ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك.. ﴾[1].

وكم تكرر قوله تعالى: ﴿ .. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

وهذا التفكير هو التفكير الجدي والمفيد وإليه أرشد الرسول الكريم بقوله:

﴿تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله﴾[3].

وقوله:

﴿تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله﴾[4].

إنه الأخذ بيد الفكر إلى الطريق المنتج والمثمر..

* * *

وعالم الشهادة ــ بعد هذا ــ ميدان واسع رحب، به تتحقق مهمة الإنسان التي هي الخلافة على ظهر هذه الأرض، حيث يسعى في تنمية وسائله والرقي بها إلى المستوى الجمالي.

* * *

والإنسان في هذا العالم لا يعيش منفرداً، بل هو واحد في مجتمع، ووجود المجتمع ينشىء علاقات متنوعة بين الأفراد..

وهناك علاقة الأفراد بخالقهم سبحانه.

وعلاقتهم بالكون من حولهم..

وكل هذه الوشائج تحتاج إلى تنظيم وتشريع يضبطها..

ومرة أخرى يتدخل المنهج الإسلامي ليقول للعقل: إن ضبط هذه العلاقات ووضع تشريع لها.. ليس من اختصاصك.

---

(١) سورة آل عمران. الآية: ١٩١.

(٢) من ذلك في سورة الرعد الآية ٣، وفي سورة الروم، الآية ٢١..

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٩٧٢.

(٤) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٩٧٣.

والمنهج لا يقول هذا تعنتاً، وإنما تطبيقاً لمعطيات العقل نفسه في هذا الأمر.

إن وضع تشريع لهذا الإنسان يحتاج إلى معرفة كاملة به، وما لم تكن هذه المعرفة كاملة، فإن ذلك التشريع لن يكون ملائماً.

وبما أن معرفتنا بالإنسان ضئيلة جداً، فإن أي تشريع يضعه إنسان سيكون ضرره أكبر من نفعه.

ولذا فقد أعفى المنهج العقل من هذه المهمة.

وقد يغتر بعضهم فيقول: إن معلوماتنا عن الإنسان قد قطعت أشواطاً بعيدة في شتى ميادين المعرفة المرتبطة به، ولذا فإننا نستطيع وضع هذا التشريع وفقاً لهذه المعلومات.

وجواباً على هذا القول نترك الكلام لـ«ألكبيس كاريل» الذي عاش حياته كلها في دراسة الإنسان، دراسة ميدانية، من خلال عيادته الطبية، فدرس جسم الإنسان ونفسيته وأخلاقه.. وهو يحدثنا عما توصل إليه العلم عن الإنسان.

يقول: «.. الإنسان كل لا يتجزأ، وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزائه في وقت واحد، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي.. ولكي نحلل أنفسنا فإنا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم عديدة، ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط، وبعد أن تضاف هذه المستخلصات إلى بعضها فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة.. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية بحيث لا يمكن إهمالها.. إن التشريح والكيمياء والفسيولوجيا وعلم النفس والبيداغوجيا (فن التعليم) والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي، لا تلم بجوانب موضوعها كلها، والإنسان ــ كما هو معروف للأخصائيين ــ أبعد من أن يكون الإنسان الجامد..

وفي الحق، لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء،

وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا.. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة..

فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف، وإن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب»[1].

تلك هي كلمة العلم حول معرفتنا عن الإنسان في عصر غطرسة العلم.

وإذا كان الأمر كذلك فقد كان المنع حفاظاً على وقتنا ألا يذهب هدراً، وحفاظاً على الأمة ألا تكون حقل تجارب، وحفاظاً على كرامة الإنسان ألا يكون عبداً للإنسان.. وحفاظاً على أن تكون العبودية خالصة لله تعالى.

والإسلام بعد ذلك يلبي حاجة الإنسان، فيقدم له تشريعاً وضعه خالق الناس، لتحقيق ما يصلح لهم.

إنه منهج يقوم على العلم بحقيقة الإنسان، وما يحتاجه.. يحقق العدل المطلق، ويتناسق مع ناموس الكون كله، ويتيح للإنسان أن يتحرر من كل عبودية لغير الله تعالى.

إنها نعمة الله تعالى على الفكر، أن وفر عليه جهوداً مضنية ما كانت لتأتي بأي ثمرة.. وبهذا يتفرغ الفكر لما هو من واجباته.

جماليات الفكر:

تعد معرفة ساحة عمل الفكر أولى جماليات هذا المنهج التي أضفاها على العقل، وقد لا نشعر بقيمة ذلك إلا عندما نتعرف على الضياع الذي عاش فيه الفكر الإنساني ــ ويعيشه ــ في كثير من بقاع الأرض... إذ يخبط خبط عشواء غير متبين للطريق وغير عارف لحدود مهمته، وقد جرَّ ذلك الويلات العظام على بني الإنسان.

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٦-١٩. ترجمة شفيق أسعد فريد.

وحديثنا عن «جماليات الفكر» لن يخرج بنا عن الحدود الجمالية التي رسمها المنهج والتي سبق الحديث عنها في «الظاهرة الجمالية»[1].

وللوصول بالعقل إلى جمالياته نطبق السمات العامة لجماليات المنهج:

(١) السلامة من العيوب:

قبل البحث عن أي جمال، لا بد من التأكد من السلامة من العيوب، وقد بذل الإسلام جهده في تخليص الفكر من كل ما يعيبه، وقد رأينا كيف حرره من كل ما يعيق حركته.. حتى وصل به إلى التحرر الذي ذكرناه، وهو بجد ذاته «سلامة من العيوب» ولكن بعض الشوائب قد تتسلل أحياناً، وحرصاً على النظافة الكاملة ــ كما هو شأن الإسلام دائماً ــ فقد عالج المنهج هذه الشوائب ونفاها نفياً تاماً.

والعيوب هنا، أو الشوائب، هي تلك الخرافات والأساطير والشعوذة والوهم.. التي تأخذ مساحة لا بأس بها من حياة الأمم والشعوب، حتى ذهب بعضهم إلى اعتبارها جزءاً مهماً من كل حضارة..!! وبخاصة الحضارة الإغريقية.

وقد ظلت هذه الشوائب مهيمنة على التفكير ــ وما زالت ــ في كثير من الأمم والشعوب التي لم يحررها الإسلام، ذلك أنها مرتبطة بجملتها بغريزة التدين، ولذا كانت لها هذه السلطة القوية، التي عن طريقها نفذت إلى العقل فعطلته، وليس هناك من سلطة أقوى من سلطة الدين في الهيمنة على العقل.. وهي السلطة نفسها التي استعملتها الكنيسة في تعطيل العقل أو تقييده.

وعن هذا الطريق وجدت تلك المعميات طريقها إلى الفكر، ولكن المنهج الذي حث العقل على العمل، عرفه طريق الإيمان الحق. وبذلك قضى على جميع الأوهام.

إن إعلان الإسلام هو نفسه إعلان للتخلص من تلك العيوب. وما كلمة التوحيد إلا التعبير عن النظافة الفكرية والمعنوية، إنها كلمة (لا إله إلا الله) التي تنفي كل تلك الآلهة المزيفة لتثبت الإله الحق.

---

(١) انظر «الظاهرة الجمالية في الإسلام» للمؤلف. ص ٢٢٣-٢٤٠.

إنها نظافة وأي نظافة، تصاحبها نظافة في الظاهر، وبهذا يكمل التناسق ويتحقق الجمال (١).

(٢) القصد:

إن التفكير هو أثمن ما يمتلكه الإنسان، فلا ينبغي أن يصرف في العبث، أو يبذل في قضايا لا طائل وراءها.

وحينما نستطلع موقف المنهج من هذه السمه نلاحظ حرصه الشديد ــ وفقاً لخطته العامة ــ على تحديد الغايات، وأن تكون سليمة، مثلها في ذلك مثل «البواعث».

وسلامة البواعث والغايات تحفظ للفكر رونقه وبهاءه (٢).

---

(١) إن غسل الجسم واجب عندما يعلن الإنسان إسلامه، وبهذا ينظف الظاهر بالماء الطاهر، وينظف الباطن بكلمة الحق كلمة التوحيد.

(٢) ونضرب مثلاً لبعض الهرج الذي يعيش فيه العالم المتقدم!! في ظل العلم.

جاء في كتاب (التنبوء العلمي ومستقبل الإنسان) للدكتور عبد المحسن صالح.

«هناك علم يعرف باسم (علم التبريد الشديد) وله استخدامات وتطبيقات كثيرة في مجال العلوم الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية.. فنحن مثلاً نستطيع أن نحتفظ بالخلايا أو الأنسجة الرقيقة حية لفترات قد تطول وذلك باستخدام التبريد الشديد. بعد معاملة الخلايا بمواد خاصة..

[وبناء على ذلك ظهرت] في أمريكا جمعية غريبة شعارها «جمد الجسد وانتظر.. ثم أخرج مرة أخرى إلى الحياة».. ولقد تأسست هذه الجمعية بعد أن ظهر كتاب اسمه «نظرات على الخلود» في عام ١٩٦٤، وفيه شرح مؤلفه «روبرت ايتنجر» كيفية حفظ الجسد قبل موته الاكلينيكي بدقائق بواسطة تبريده فجائياً بالنيتروجين السائل، حيث تصل درجة الحرارة إلى حوالي ١٩٦ درجة مئوية تحت الصفر ولا بد والحال كذلك من وضع الجسد في كبسولة خاصة يبلغ ثمنها حوالي (٤١٠٠) دولار ــ بأسعار عام ١٩٦٨ ــ بالإضافة إلى عشرة آلاف دولار مصاريف التجهيز و(٤٥٠) دولاراً سنوياً تكلفة النيتروجين السائل.

ويوجد الآن حوالي ١٤ جسداً أمريكياً محفوظاً في كبسولات تحت درجة حرارة منخفضة جداً..» ص ٢٣٥-٢٣٦.

وكل ذلك يُفعل على أمل أن يتقدم الطب ويصبح قادراً على إعادتهم إلى الحياة؟!

ويقول الدكتور «ك. هندرسون» رئيس جمعية التبريد الفجائي بنيويورك إن تجميد الناس =

(٣) التناسق.. والتنظيم:

إن تحديد مهام العقل من التنظيم..

وإن توازن العلاقة بين العقل والجسم والروح من التناسق وقد سبق الحديث عن ذلك [١].

وتناسق آخر يقوم بين العقل والعلم والأخلاق في سبيل الوصول إلى جمال الباطن..

(٤) الحكمة:

عرِّفت الحكمة بقولهم: هي وضع الشيء في مكانه المناسب. وهي من عمل العقل الواعي الجميل.

ولإيضاح ذلك: ننقل ما قاله الغزالي..

«العقل يطلق على أربعة معان:

ـ الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعدَّ به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية.

ـ هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات..

ـ علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال. فإن من حنكته التجارب

= قبل موتهم يمثل جريمة قتل.

وبغض النظر عن قيمة الفكرة ومقدار الأمل في تحقيقها نقول: ما هي السعادة في حياة يعيشها الإنسان في غير عصره ومع غير جيله، ومع من لا يعرف. وقد تغيرت القيم والمفاهيم والوسائل.. أية غربة هذه؟

وقد صان الإسلام الفكر عن هذا الهرج فقدر منذ البدء أن الحياة والموت بيد الله سبحانه.. فصان الإنسان عن العبث.

أما كان من الأجدى للفكر البشري أن يشتغل في صيانة حياة الملايين المهددة بالخطر.. من أن يبذل جهده في سراب خادع..

(١) انظر «ميادين الجمال» الفصل الخامس من الباب الثاني.

وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة..

ـ قوة تنتهي إلى معرفة عواقب الأمور، فيقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها.. فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إنّ إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة..»[١].

والأول والثاني ضروريان وأساسيان، وإنما يتفاوت الناس في القسمين الأخيرين: الثالث والرابع ـ وهما مكتسبان ـ، فإذا بلغ الإنسان مرحلة متقدمة في هذين القسمين وصل إلى الحكمة[٢]، فسمي حكيماً، وحينئذ يصل بعقله إلى درجة الجمال، أو يصل به عقله إلى درجة الجمال ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[٣].

ومع ذلك فإن العقل يظل بحاجة إلى مقياس يقاس به سلوكه.. وقد وفر الإسلام ذلك.. إنه المنهج.. وطريقه العلم.. ومن تطبيقاته الأخلاق.

* * *

إن عقلاً عرف حدوده، فبذل جهده فيما هو من شأنه، وصان طاقته عن الضياع فيما لا طائل تحته، وأفاد من علمه وتجربته، وسعى في سبيل تحويل المعرفة إلى عمل.. إنه العقل الذي تجاوز الضرورات والحاجيات واستكملها، فاستطاع أن يصل إلى التحسينات.. وتلك مرتبة الجمال.

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٨٥-٨٦.

(٢) يقول د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم: «إن الحكمة بالمعنى الإسلامي تتضمن العمل بالمعرفة. الأمر الذي يميزها تماماً عن المفهوم اليوناني ـ (الفضائل الخلقية في الإسلام) ص ١٠٠.

(٣) سورة البقرة [٢٦٩].



الفصل السادس
جماليات العلم

- فضيلة وشرف
- الحد الأدنى
- نتائج سلوكية للعلم



فضيلة وشرف:

العلم فضيلة وشرف، وزينة وجمال.

ذلك أمر لا مشاحة فيه ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (١)؟ وللعلم مكانة رفيعة في الإسلام، ليس له ما يماثلها أو يدانيها في دين آخر أو مذهب. فقد أراد المنهج أن تعم هذه الفضيلة جميع أفراد المجتمع، فتكون الحلية التي يتزينون بها، ولذا جعله فرضاً لازماً، وأمراً واجباً فكان (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (٢).

وما هذا الحديث الشريف إلا التقرير للحقيقة الثابتة في كيان هذا المجتمع، وهي أن المتعلم هو الذي يصلح لبناء هذا المجتمع، فجميع العلاقات والوشائج التي تربط الفرد بما حوله يضبطها المنهج وينظمها، ولا بد من العلم بهذه الضوابط حتى يستطيع التحرك..

فالعلاقة بالله تعالى ــ عقيدة وعبادة بحاجة إلى علم.
والعلاقة بالناس.. والتعامل معهم.. بحاجة إلى علم.
والعلاقة مع الكائنات الأخرى ــ غير الناس ــ بحاجة إلى علم.
ولهذا فالحديث من جوامع الكلم.

والعلم في ظلال هذا الدين ليس معرفة باردة يتمتع بها العقل، أو ثقافة نظرية، أو فلسفة أرسطية..

ولكنه العلم الذي ينتج عملا. فما إن تصل المعلومة إلى مكانها في كيان المسلم

---

(١) سورة الزمر [٩].

(٢) رواه ابن ماجه في سننه المقدمة باب ١٧ رقم الحديث ٢٢٤.

حتى يحدث ذلك التفاعل المنتج للطاقة الفاعلة.

إنه تفاعل مع كيان الإنسان كله، فهو للعقل معرفة، وللقلب يقين، وللجوارح طريقة عمل.. وكلما عظم العلم، كلما كان الأداء أحسن، حتى يصل في النهاية إلى «الإحسان».

إن الغاية الكبرى التي يسعى إليها الإنسان هي السعادة في الدنيا والآخرة، وهي لا تكون إلا بتطبيق المنهج الإلهي ــ علماً وعملاً ــ ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم، لا يستكثرون من القرآن، فكانوا لا يتعلمون الآيات.. قبل تطبيق ما حفظوه. وهكذا تعلموا العلم والعمل معاً، وتلك ــ والله أعلم ــ بعض الحكمة من نزول القرآن مفرقاً.

وقد نبه القرآن الكريم إلى الانحراف الكبير في قضية العلم، وهي فصله عن العمل، فقال تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾؟

إن التناسق بين العلم وبين العمل، وبين القول وبين العمل، أمر ضروري يجعل للعلم حركة فعالة.

والعالم الذي يجعل من علمه سلعة يتكسب بها ــ أي نوع من الكسب ــ ولا يطبق ما علم، فقد يكون الجاهل أحسن منه حالاً وأنظف مآلاً.

فالعلم ــ إذن ــ مسؤولية، وليس رتبة يرتفع بها الإنسان فوق الآخرين ذلك أن العالم خاضع للحساب أمام الله تعالى كأي إنسان آخر.

إن العلم هو الطريق إلى العمل.

الحد الأدنى:

لا بد للمسلم من العلم الذي يتيح له أن يكون سلوكه متساوقاً مع المنهج. إذ من الضرورة بمكان أن يكون لديه من العلم ما يصحح به عقيدته، وأن يكون على

علم بالمحرمات والممنوعات حتى يبتعد عنها. وبالواجبات حتى يؤديها.

إن الفقير لا يطالب بتعلم الحج حتى يصبح قادراً، والأعمى لا يطالب بتعلم أحكام غض البصر..

وعلى هذا فهناك حد أدنى من العلم يتناسب مع وضع كل إنسان. ومن وراء ذلك الضابط العام الذي يعرفه كل مسلم، وهو أنه لا ينبغي له أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذا القدر من العلم، اللازم لكل إنسان، قد يسر الإسلام الحصول عليه، ودون أية كلفة وذلك عن طريقين:

ــ المجتمع المسلم: فما يحل وما يحرم.. لا يجهله إنسان يعيش في مجتمع إسلامي وهذا النوع من العلم هو ما أطلق عليه الفقهاء اصطلاح (ما عرف من الدين بالضرورة) فلا يقبل من مسلم نشأ في هذا المجتمع أن يدعي الجهل بحرمة الزنا أو السرقة..

ــ خطبة الجمعة: وهي الدرس الأسبوعي الذي يتلقاه المسلم عند أداء فريضة الجمعة. والخطبة هنا تسهم في تعليم الناس وتثقيفهم إلى حد بعيد، فإذا قدرنا أن الخطيب يتناول في خطبته بيان حكمين من أحكام الإسلام فإن الحصيلة السنوية تزيد على تعلم مئة حكم..

وهكذا يبدد الإسلام الجهل..

نتائج سلوكية للعلم:

إن العلم ــ في تلك الحدود التي أشرنا إليها ــ له نتائج كبيرة في بناء شخصية الإنسان الباطنة، وبالتالي فلا بد أن تظهر آثار ذلك في سلوكه.

وهذا الجانب من البحث هو الذي يعنينا في موضوعنا هذا، حيث يظهر الجمال الباطن للإنسان من خلال ذلك المسلك.

ونشير إلى أهم تلك النتائج إشارة موجزة:

(١) خشية الله تعالى:

ذلك ما نصت عليه الآية الكريمة بقولها: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وهكذا ربطت «الخشية» بصفة «العلم»، والعلم هنا على إطلاقه، فكل علم يؤدي إلى هذه الخشية، وسياق الآية يؤكد ذلك، حيث ورد في الآية تعقيباً على مشاهد كونية، ولننظر إلى النص في سياقه.

قال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾[1].

وهكذا في اتجاه طردي، كلما زاد علم الإنسان، كلما زادت خشيته من الله تعالى.

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به... لأنه كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر».

والخشية لله لها أبعادها في جوانب النفس كلها.

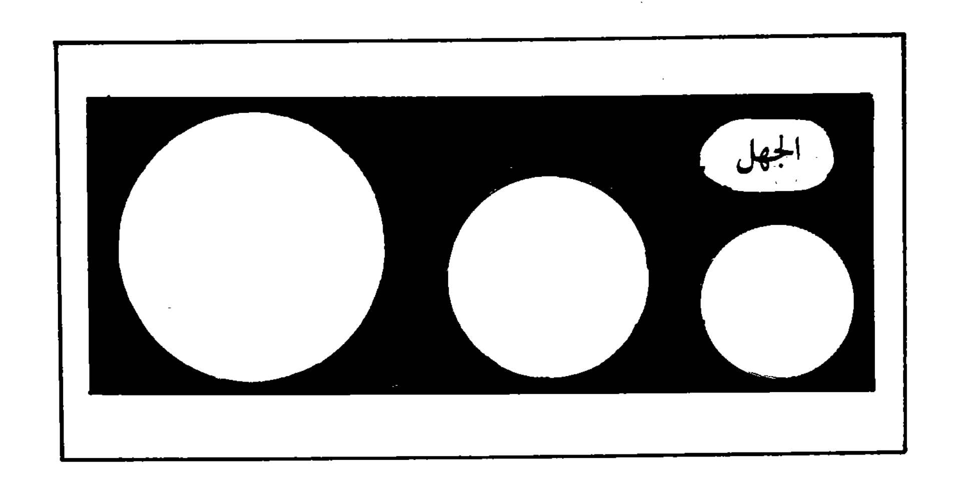
(٢) التواضع:

وتلك من نتائج العلم، فكلما أوغل الإنسان في العلم، كلما كبر علمه بعظم جهله، ذلك أن العلم يبصره بآفاق لم يكن يعلمها، ويفتح له مسالك ما كان يظن وجودها.

وإيضاحاً لذلك، نطرح المثال التالي: فالإنسان يمر بمراحل تعليمية متتابعة.. التعليم الثانوي.. ثم الجامعي.. ثم العالي. وإذا ذهبنا نمثل لحجم علمه في كل مرحلة بدائرة كنا أمام الدوائر التالية.

---

(١) سورة فاطر [٢٧].



ومحيط هذه الدوائر يمثل جهله في كل مرحلة. وواضح أن محيط الدائرة الأولى (الثانوية) أقصر من محيط الثانية (الجامعية)، ومحيط الثانية أقصر من محيط الثالثة (التعليم العالي) وإذن كلما زاد علمه كلما طال محيط الدائرة الذي يمثل جهله وهذا ما يجعله في مرحلة التعليم العالي أكثر تواضعاً مما قبلها، لأنه يشعر بضآلة علمه أمام جهله.

ولهذا قالوا: إن العالم كالشجرة، فكلما كثر الثمر فيها، كلما ثقلت أغصانها ودنت من الأرض. وإذا لم يكن فيها ثمر كانت أغصانها ذاهبة في السماء..

ومعنى التواضع، انتفاء الكبر، ولا يجتمع العلم والتكبر إلا في نفس إبليسية جعلت من إبليس قدوة لها.

* * *

هاتان الصفتان، الخشية لله والتواضع له، إضافة إلى ما سبق ذكره من تطبيق العلم، هي مبعث الفضائل في النفس الإنسانية وأساس جمالها الباطن.



الفصل السابع
جماليات الأخلاق

- التشريع والأخلاق
- الحد الأدنى
- المؤيدات
- المنهج والفضيلة الخلقية



يذهب (حسن الخلق) بالنصيب الأوفر من جماليات الباطن، ولهذا اعتبره بعض المفكرين في مقابل حسن الخَلْق الذي يعني جمال الظاهر.

وللمنهج الإسلامي اهتمام كبير بالأخلاق الفاضلة، يدل على ذلك كثرة النصوص التي وردت بشأنها.

وقد وصف الله تعالى رسوله ﷺ بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم)[1] وقد وردت النصوص الكثيرة توضح هذا الخلق العظيم، ولخصت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك بقولها ﴿كان خلقه القرآن﴾.

ولا نريد في حديثنا هنا أن نعدد الأخلاق الفاضلة أو أن نحصيها، كما لا نريد ضبط تعريف لها.. والخوض في فلسفتها، لأن ذلك ليس من مهمة هذا البحث، وإنما نتحدث عن بعض النقاط التي تعد سمات مميزة ترشدنا إلى ماهية الفضيلة الخلقية، حتى يتضح لنا الفارق بين الحكم الشرعي وبين الفضيلة الخلقية.

التشريع والأخلاق:

في سبيل ضبط أمثل لحياة الإنسان الذاتية والاجتماعية، جاء المنهج الإسلامي بنظام التشريع وبنظام الأخلاق، وجعلها جنباً إلى جنب، ذلك أن العلاقة بينهما وثيقة، والصلة حميمة.

وإذا كان التشريع يضبط لنا علاقة الفرد بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، من زوجة وأولاد ووالدين.. وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته بالدولة.. فإن النظام الخلقي يدخل ــ أيضاً ــ هذه الميادين على قدم المساواة مع التشريع، ويسايره جنباً إلى جنب.

ويجمع النظامين غاية واحدة، وهي الوصول بالإنسان إلى درجة الإحسان، ولا

---

(١) سورة القلم [٤].

تتخلف هذه الغاية حتى في ميدان العبادات.

ففي شأن الصلاة قال تعالى: ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[1].

وقال في شأن الزكاة: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾[2].

وقال في شأن الصوم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[3].

وقال في الحج: ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج.. ﴾[4].

وهكذا كان الجانب الخلقي واحداً من غاية العبادات..

ولعل هذا يفسر لنا بعض الحكمة من سياق الآيات الكريمة، حيث لم يفصل القرآن الكريم بين الأحكام التشريعية وبين الأحكام الأخلاقية، بل جاءت مع بعضها، ذلك أن غايتها واحدة، ولا بد من التعاون بينها، فإذا كان التشريع يعالج الأساس فإن الأخلاق تعالج البناء، وإذا كان التشريع يتناول الظاهر، فإن الأخلاق تتناول الباطن.

ولنستمع إلى السياق القرآني، كيف تناول الجانبين:

﴿ قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون.. ﴾[5].

﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات

---

(١) سورة العنكبوت [٤٥].
(٢) سورة التوبة [١٠٢].
(٣) سورة البقرة [١٨٣].
(٤) سورة البقرة [١٩٧].
(٥) سورة المؤمنون [١-٤].

لصوت الحمير﴾[1].

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما. والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مستقراً ومقاماً. والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون.. ﴾[2].

وهكذا يظهر السياق ذلك التلازم بين النظامين. ومع ذلك نستطيع أن نسجل بعض السمات التي تميز لنا الحكم الأخلاقي. ومن ذلك:

■ إن مهمة التشريع هي إحقاق الحق وإقامة العدل. أي إيصال كل ذي حق إلى حقه. أما الأخلاق، فإنها تسمو على ذلك، فإن مهمتها التعامل على أساس من التسامح فيتنازل صاحب الحق عن حقه..

وتسجل لنا الآية الكريمة التالية الحكمين معاً: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[3].

■ إن التشريع يتناول الفعل أو الترك، وله موقف صارم إزاء كل منهما فأما ما يطلبه من الفعل فإن لفاعله الأجر وعلى تاركه العقوبة. وأما ما يطلبه من الترك فعلى فاعله العقوبة ولتاركه الأجر.

أما الحكم الأخلاقي فإن لفاعله الأجر الكبير وليس على تاركه وزر أو عقوبة فالصلاة: لفاعلها الأجر، وعلى تاركها العقوبة.

والزنا: لتاركه الأجر وعلى فاعله العقوبة.

وأما «العفو» فإن لفاعله الأجر، وليس على تاركه عقوبة أو لوم. وهذا فارق أساسي بين الحكمين.

---

(١) سورة لقمان [١٧-١٩].
(٢) سورة الفرقان [٦٣-٦٨].
(٣) سورة الشورى [٤٠].

الحد الأدنى:

تحدثنا في الفصل السابق عن الحد الأدنى من العلم. ونتحدث هنا عن الحد الأدنى من الفضائل الخلقية. وقد بينا في الفقرة السابقة، ما يتميز به الحكم الأخلاقي وهذا لا يعني خلو الحكم الشرعي من الفضيلة الخلقية، بل إن هذه الأحكام تضمن لنا الحد الأدنى الذي لا بد أن يتحلى به كل مسلم. ولكن هذه الحلية تكون هنا على سبيل الإلزام لأنها داخلة تحت نطاق الحكم الشرعي.

ونضرب أمثلة على ذلك.

ـ الصدق واجب وهو حكم شرعي، وليس فضيلة، لأن عدمه يعني وجود الكذب. وقال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾(١) والفضيلة في هذا الباب: هي تحري الصدق.

ـ النفقات التي نص عليها الشرح حكم شرعي.. والتبرع بعد ذلك فضيلة.

وهكذا فالصدق وأداء النفقات وترك الزنا.. هي أحكام شرعية ولكنها تضمن لنا وعلى سبيل الإلزام الحد الأدنى من الفضيلة التي لا بد لكل مسلم من التحلي بها.

إن الذي يسيطر عليه الشح يلزمه الإسلام بالزكاة والصدقات، وأداء الواجبات من النفقات. وهكذا وعلى سبيل الإلزام يعلمه أن يسير في طريق الكرم، قد لا يصل به إلى أن يكون كريماً فعلاً، ولكنه يتجاوز به حالة الشح والبخل.. وهكذا في بقية الفضائل.

المؤيدات:

ومؤيدات التشريع هي مؤيدات الفضيلة الأخلاقية، فالدافع إلى القيام بهما هو الرغبة في تنفيذ ما يحبه الله تعالى. ولهذا كانت الرقابة ذاتية، وبتعبير أدق هي لله تعالى.

ومع هذا فهناك فارق لا بد من التنويه به والإشارة إليه. فهناك عامل نفسي

---

(١) سورة النحل [١٠٥].

مهم ذلك أن الحكم الشرعي مؤيد بالعقوبة.. فربما كان الخوف من العقوبة عاملاً مهماً في الدفع إلى التنفيذ.

بينما في الحكم الأخلاقي، لا سلطان للعقوبة، بل يحل مكانها الترغيب في الدرجات العليا من الجنة..

وهذا الفارق واضح في آيات الله ونضرب لذلك مثلاً:

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله..﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[2].

والتهديد والوعيد واضح في الآية الأولى وهي تقرر حكماً شرعياً، بينما يظهر الترغيب والحث على الصبر في الآية الثانية وهو حكم أخلاقي.

المنهج والفضيلة الخلقية:

تبين مما سبق أن المنهج الإسلامي ضبط الفضيلة الخلقية وحددها، فهي ذات أصول ثابتة لا تتغير بتغير الأزمنة أو الأمكنة.. لأنها تستند إلى المنهج ذاته فهي من معطياته، وليست قائمة على مجرد التحسين العقلي.

ولأنها منبثقة عن هذا المنهج كان التناسق كاملاً بينها وبين فروعه الأخرى، حيث تبوأت مكانها في قسم الجماليات، فهي تمثل قسم التحسينات بينما يمثل التشريع قسم الضرورات.

ولهذا كانت مكانة الفضيلة الخلقية هي مكانة الذروة، إذ هي القصد الهدف، وقد رأينا كيف أن العبادات نفسها تهدف إلى تحقيق الفضيلة في ذات الإنسان ولعل الحديث الشريف يؤكد هذا المعنى بوضوح وهو قوله ﷺ: ﴿إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾[3].

---

(١) سورة البقرة [٢٧٩].

(٢) سورة النحل [١٢٦].

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث احياء علوم الدين: أخرجه أحمد والحاكم.

والفضيلة في غالب أحوالها سلوك يتجه إلى تحقيق ما فيه صالح الآخرين وهي في الوقت نفسه سمو بالنفس وارتفاع بها في سلم المكرمات.. قال ﷺ: ﴿إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً﴾(١).

وإذن فالتزام الفضيلة يسبقه التزام بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي. وحين تفقد الفضيلة هذا الشرط فإنها تفقد وجودها. وهذا ما عبر عنه أبو بكر رضي الله عنه بقوله: (إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة).

وفي ضوء هذا الشرط نفهم تلك الأحاديث الشريفة الكثيرة التي رفعت مكانة الأخلاق ونذكر منها:

قوله ﷺ: ﴿أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً..﴾(٢).

وقوله ﷺ: ﴿إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً..﴾(٣).

فحسن الخلق، مرتبة يرتقى إليها عن طريق التزام الشرع بتنفيذ ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.. ثم تأتي مرتبة حسن الخلق التي تعني تصعيد العمل بالاتجاه الخير.

* * *

إن السلوك الخلقي هو حصيلة تفاعل يقوم بين الفكر والعلم، بتدخل من الإرادة التي تحول الجانب النظري إلى عمل واقع.

ومن هذه الحصيلة يتكون جمال الباطن، وهو يخضع في مستواه إلى درجة التناسق التي تكون بين المكونات.

ولا يفوتنا هنا أن نوضح مكانة (حسن الخلق): إنها الذروة في جماليات الباطن. ذلك أن الفكر والعلم إنما هما وسيلة للوصول إليها، وهي الغاية بالنسبة إليهما.

---

(١) متفق عليه ــ كما جاء في رياض الصالحين.
(٢) رواه الترمذي، كما في رياض الصالحين.
(٣) رواه الترمذي، كما في رياض الصالحين.

الفصل الثامن
مكانة الجمال الباطن

- تقديم جمال الباطن.
- أثر الباطن في الظاهر.
- تناسب الباطن.



عقل متحرر يفكر بعيداً عن الخرافة والأسطورة والوهم، في مجالات إمكاناته وفي حدود قدراته.

وعلم يستقر في الفكر، ليكون معرفة تقود إلى العمل.

وفطرة تنمو في ظلال المنهج الإلهي. فإذا الأخلاق الفاضلة دستور ونظام تتعامل الحياة من خلالها.

تلك هي جمالية الباطن، التي تجسدها الأخلاق الفاضلة.

وقد تحدثنا في القسم الأول من هذا الباب عن الوسائل التجميلية لظاهر هذا الإنسان، وكانت نهاية المطاف حديثاً عن جماليات القول أوصلنا من حيث لا نشعر إلى بحث أخلاقي، هو توافق القول والعمل.

وهكذا كانت الأخلاق نهاية المطاف في جماليات الظاهر، وكانت كذلك في جماليات الباطن. مما يؤكد وحدة هذا الإنسان، وتكامل هذا المنهج وتناسقه مع طبيعة هذا الإنسان.

وفي هذا الفصل نتحدث عن مكانة هذه الجماليات، وأثرها في غيرها. ثم تناسقها مع غيرها..

تقديم جمال الباطن:

إن جمال الباطن مقدم على جمال الظاهر، وإليه ترجع الكلمة الأخيرة في تحديد جمالية الإنسان.

ذلك ما ذهب إليه الباحثون المسلمون:

فالغزالي، يقسم المدركات إلى قسمين: مدركات بالحواس ومدركات بالقلب، والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال

الصور الظاهرة للأبصار [١].

وجمال الخُلُق عند ابن تيمية هو جمال الباطن، وهو يرى: أن الجمال الذي للخُلُق، من العلم والإيمان والتقوى، أعظم من الجمال الذي للخَلْق، وهو الصورة الظاهرة [٢].

ويقول ابن القيم: اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [٣].. ومما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه [٤].

وهكذا التقت الآراء على أمر مشاهد، ولم تكن تلك الآراء إلا تقريراً للواقع، فلا مشاحة في تقديم جمال الباطن على جمال الظاهر، وتلك حكمة الله تعالى أن كان الأمر كذلك. فجمال الباطن حصيلة لإعمال العقل وإرادة العلم والتخلق بالفضائل.. وكلها قضايا للكسب أثره الكبير في إيجادها أو صبر النفس عليها. أما جمال الظاهر فهو أمر لا دخل للكسب فيه وهو زينة خص الله بها بعض عباده.

إن هذا الأمر المقرر الواضح ـ وهو تقديم الجمال الباطن ـ لم يكن كذلك في العالم الغربي الحديث. حيث اعتبر الظاهر كل شيء.. وقامت مسابقات الجمال.. وانتخبت الملكات.. وأخضع هذا الاختبار لمقاييس مثالية من قياس الطول والصدر..

وقد هال الأمر العقلاء في تلك المجتمعات، فقاموا يتحسرون على ما وصل إليه فكرهم من إسفاف مادي. ومن هؤلاء «الكسيس كاريل» الذي قال:

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٢٩٧.

(٢) الاستقامة، لابن تيمية ١/٤٤١.

(٣) رواه أبو هريرة، انظر «صحيح سنن ابن ماجه» ٣٣٤٢، «مختصر صحيح مسلم» ١٧٧٦، «صحيح الجامع الصغير» ١٨٦٢، «غاية المرام» ٤١٥. طبع المكتب الاسلامي.

(٤) روضة المحبين ص ٢٣١ ط ١ دار الكتاب العربي، بيروت.

«لقد طبقنا على الإنسان آراء تتصل بالعالم الآلي، فأهملنا التفكير والعفو الأدبي والتضحية والسلام، وعاملنا الفرد كما نعامل المادة الكيميائية والآلة... لقد قضينا على وظائفه الأدبية والجمالية والدينية» [1].

ويتحدث عن الجمال الباطن وعن ندرة وجوده فيقول:

«إننا قلما نشاهد أفراداً يتبعون مثلاً أخلاقياً أعلى في تصرفاتهم في المدينة العصرية، ومع ذلك فأمثال هؤلاء الأفراد موجودون فعلاً... إننا لا نملك إلا أن نلاحظ تصرفاتهم عندما نلتقي بهم.. أما الجمال الأخلاقي فاستثنائي، وهو ظاهرة ملحوظة جداً.. والشخص الذي يفكر فيه ولو مرة واحدة لا ينساه أبداً.. وهذا الشكل من أشكال الجمال أكثر تأثيراً بكثير من جمال الطبيعة والعلم.. إنه يمنح أولئك الذين يملكونه هبات جليلة الشأن، قوة عجيبة لا يمكن إيضاحها.. إنه يزيد قوة العقل، ويوطد السلام بين الناس.. والجمال الأدبي يفوق العلم والفن من حيث إنه أساس الحضارة» [2].

أثر الباطن في الظاهر:

وإذا كان الباطن هو المقدم، فإن آثاره تبدو واضحة على الظاهر سواء أكان ذلك في حالة الإيجاب أم في حالة السلب، وبتعبير آخر: سواء أكان ذلك في حالة الجمال أم في حالة القبح.

قال ابن القيم:

«والجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تك ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطى مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه، وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان أسودَ أو غيرَ جميل، ولا سيما إذا رزق حظاً من صلاة الليل، فإنها تنور الوجه وتحسنه» [3].

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٠٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٥٣.
(٣) روضة المحبين لابن القيم ص ٢٣١ طبعة دار الكتاب العربي.

ثم يؤكد قوة أثر الباطن بقوله:

«.. فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره» (١).

وإذا كان ابن القيم قد وضح لنا الأثر في الجانب الإيجابي، فإن الغزالي يوضح لنا هذا الأثر في جانبه السلبي، وذلك عندما تحدث عن الكبر.

قال الغزالي:

«الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة..».

ثم يوضح ذلك فيقول:

«اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه، ونظره شزراً، وإطراقة رأسه، وجلوسه متربعاً أو متكئاً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره، وقيامه وجلوسه، وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله» (٢).

ويتبين مما سبق أن أثر الباطن كبير، بحيث لا يستطيع الظاهر أن ينفك عنه، ولهذا اتجه النظام الخلقي الإسلامي إلى التعامل معه لأنه هو الأصل.

وإذا كان الأثر بهذا الحجم، فإن المسلم مدعو للتخلق بالأخلاق الفاضلة، والابتعاد عن الأخلاق السيئة، حتى يجمل باطنه فينعكس ذلك على ظاهره، وقد كان الإسلام دعاه إلى تجميل ظاهره ــ كما سبق ــ وبهذا تلتقي تعاليم الإسلام لتوصل الإنسان إلى الصورة الجميلة، حساً ومعنى.

وإذن، فعندما يجمل الباطن، فإنه يفيض من حسنه على الظاهر، وهذا أمر يحدث تلقائياً، يحسّ به كل الذين يتعاملون مع الإنسان، وكذلك عندما يقبح الباطن، فإنه يلقي بظلاله على الظاهر.. فيعطي تلك الصورة البشعة التي يستشعرها المتعاملون معه.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٢.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٣٥٣ و٣٥٤.

تلك هي الحقيقة الواقعة..

وهذا لا يعني، أبداً، أن نعطي لأنفسنا الحق في تفسير بعض المظاهر والحكم على الباطن الذي وراءها، فكثير من المظاهر يكون نتيجة لأكثر من حالة باطنة، فإلزام ظاهر ما، أن يكون ناتجاً عن باطن معين قد يكون فيه خطأ كبير.

والمثال الذي نوضح به ذلك. ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» (١).

إن الرجل الذي سأل النبي ﷺ عن حسن الثوب والنعل، ما كان يظن إلا أن ذلك من الكبر، حتى بين له النبي الكريم هذا المعنى الدقيق.

فالكبر خلق باطن قد ينتج عنه عناية معينة باللباس، ولكن ليست العناية باللباس نتيجة حتمية لكبر.

ولا ينبغي لنا ــ أيضاً ــ أن نحول بعض المعاني القلبية إلى مظاهر حسية، فذلك خطأ كبير. ربما أدخل صاحبه في باب الرياء.

فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب (٢).

وجاء في تفسير القرطبي:

دخل أبو محمد ــ ابن أخي معروف الكرخي ــ على أبي الحسن بن يسار وعلى أبي محمد جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد، صوفت قلبك أو جسمك؟ صوّف قلبك والبس الفوهي على الفوهي. ﴿والفوهي: ضرب من الثياب﴾ (٣).

---

(١) رواه أبو داود ومسلم، والترمذي. جامع الأصول ١٠/٦١٤.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٢٩٦.

(٣) في تفسير الآية ٣٢ من سورة الأعراف ٧/١٩٦.

إن أعمال القلوب لا ينبغي أن تحول إلى عمل حسي، لأن ذلك يعني لفت النظر إلى العمل.. وهنا تدخل شبهة الرياء.

تلك جوانب كان لا بد من الإشارة إليها، حتى لا تختلط المعاني ويشتبه علينا الأمر.

تناسب الباطن (بعضه مع بعض):

الأخلاق الفاضلة نظام كامل يتعامل مع شتى جوانب النفس الإنسانية، ليرتقي بها ارتقاء متوازناً، بحيث يكون التناسب محققاً بين جوانب النفس.

فالعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة.. وسائر خلال الخير.. كل منها يقوم بمهمته في تغطية جانب من جوانب النفس، والارتقاء به.

وحينما تتعطل واحدة منها فإن النظام يصاب بالخلل مما يؤدي إلى فقدان التناسب وبالتالي ذهاب الجمال.

ذلك «أن كل إنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة...

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن.. أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق..»(١).

هذا ما قاله الغزالي موضحاً الأمر المعنوي بالاستعانة بالصورة الحسية المشاهدة في الظاهر.

ونقول إن هذا التناسب قد حققه المنهج تلقائياً، بما سبق وتحدثنا عنه تحت عنوان «الحد الأدنى» في فصلي العلم والأخلاق.

ذلك أنه لا بد لكل مسلم من حد أدنى من العلم، يتعرف عن طريقه على

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٣.

الحد الأدنى من المأمورات والمنهيات، وقد رأينا كيف أن هذه المأمورات تشتمل على الحد الأدنى من الأخلاقيات المطلوبة في توازن وتناسب.

فالشجاعة مطلوبة، والحد الأدنى فيها عدم الفرار من الزحف. وهو أمر إلزامي.

والتقوى مطلوبة، والحد الأدنى الوقوف عند الحلال والحرام وهو أمر إلزامي.

والكرم مطلوب. والحد الأدنى. أداء الزكاة والصدقات والنفقات.. وهو أمر إلزامي..

وهكذا في بقية خلال الخير.

وإذا وجد الحد الأدنى ــ وهو موجود بإلزام التشريع ــ فلن يحصل خلل، لأن هذا الحد هو القاعدة والأساس.



الفصل التاسع

التربيّة وجماليات المنهج

- ◻ السلامة من العيوب.
- ◻ القصد.
- ◻ التناسق.
- ◻ التنظيم.



يحسن بنا في نهاية هذا الباب أن نلخص ما ورد فيه بكلمات قليلة نستجمع فيها أطراف الحديث.

فقد استعرضنا فيه، كيف حرص المنهج الإسلامي على تجميل الإنسان المسلم من خلال التزام هذا الإنسان بشريعة الله تعالى.

وقد بينا في القسم الأول ـ ومن خلال أربعة فصول ـ تلك التشريعات الكثيرة التي اعتنت بتجميل ظاهره ابتداء من الجسم ومروراً باللباس وانتهاء بالهيئة.

كما بينا في القسم الثاني ـ ومن خلال أربعة فصول أيضاً ـ الخطوط العامة التي وضعها المنهج بغية الوصول إلى تجميل باطنه..

ذلك بعض الجمال الذي يحققه المنهج للإنسان تحت عنوان الجمال.

وأما بعضه الآخر، فإنه مبثوث في المنهج كله، في كلياته، وفي جزئياته، يتكامل في ذات الإنسان مع تكامل التزامه..

وإذا كانت التربية بشكل عام، هي سعي لتحويل المنهج من نظريه إلى واقع قائم في ذات الأفراد، فإن الجمالية الكاملة للإنسان لن تظهر إلا عند التطبيق الكامل للمنهج.

ونحاول في هذا الفصل إلقاء الضوء على جمالية المنهج ككل من خلال استعراض السمات الجمالية وتتبع خيوطها، وبهذا تتحقق لنا رؤية جمالية أشمل، يظهر من خلالها التناسق والتناسب والنظام، ويتبين لنا أن كل شيء يصدر عن هذا المنهج إنما يصدر بقدر وحساب، فلا تعارض ولا تناقض، بل تعاون وتكامل، وهذا بحد ذاته جمال عظيم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(١).

---

(١) سورة النساء [٨٢].

وقد سبق لنا تسجيل السمات الجمالية، في الجزء الأول من هذه الدراسة وكان أهمها: السلامة من العيوب، القصد، التناسق، والتنظيم، ونحن نتحدث عن كل منها باختصار.

(١) السلامة من العيوب:

تلك هي السمة الأولى التي ينبغي التحقق من وجودها لدى البحث عن جمال ما.

والمنهج الإسلامي حين وضع نظام «جمالية الإنسان» انطلق من المبدأ نفسه، فكانت الخطوة الأولى على طريق الجمال، هي التخلص من كل الأدران والأوساخ الظاهرة والباطنة.

ففي مجال الظاهر، طالب المنهج ــ كما رأينا ــ الإنسان بالنظافة في جسمه وفي ثيابه.. وأثاث بيته ومتاعه، وفي المكان الذي يجلس عليه.

وما النظافة، في واقع الحال، إلا التخلص من كل ما يستقذر، مما تشمئز منه النفس، وتنفر منه العين.

ويساير الباطن الظاهر في هذه الخطوة، حيث يبدأ جماليته بالتخلص من العيوب، التي هي الآثام والذنوب، وذلك بالبعد عنها، وهذه الآثام بعضها مما يجترحه القلب، وبعضها مما تقوم به الجوارح، والإنسان مطالب بالبعد عن النوعين معاً، قال تعالى: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾[(١)].

وهكذا كانت المرحلة الأولى واحدة في الجانبين، نظافة في الظاهر تصاحبها نظافة في الباطن، وقد أكد هذا الاقتران قوله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[(٢)].

والتوبة هنا هي النظافة من الذنوب، فهي طهارة الباطن، والتطهر هو النظافة من الأدران الظاهرة.

وما الطهارة بكل أبعادها ــ الظاهرة والباطنة ــ إلا السلامة من العيوب.

وإذا أنعمنا النظر في المنهج خارج الإطار الذي ذكرنا، تبين لنا أن تلك السمة

---

(١) سورة الأنعام [١٢٠].

(٢) سورة البقرة [٢٢٢].

خط أصيل يبدأ من العقيدة وينساب إلى الشريعة ثم ينتقل من الكليات إلى الجزئيات ليسجل عمومه وشموله.

ففي ميدان العقيدة تبدأ كلمة «التوحيد» بالنفي ثم الإثبات. ذلك ما يبدأ به المسلم إيمانه (لا إله إلا الله..) فالنفي تعبير عن الطهارة من كل أنواع الشرك، وبراءة من الآلهة المزيفة.. وتلك هي سلامة القلب من عيوب العقيدة.

فإذا ما انتقلنا إلى الفرعيات والجزئيات وجدنا شرايين تلك السمة تغذيها تغذية تامة.. والأمثلة على ذلك كثيرة..

الإنسان مطالب في ميدان عمله اليومي ــ أياً كان هذا العمل ــ أن يتقنه ويحسنه ما استطاع، وهذه المرحلة ولا شك إنما تتم بعد تجنب الغش، فإن الغش يذهب بكل جمال مهما كان شأنه، وإذن فقبل البحث عن جمالية عمل ما لا بد من التأكد من سلامته من العيوب..

ومن خلال هذا المنهج تصبح سمة السلامة من العيوب خطا عاماً يصبغ نفس الفرد بصبغته فإذا بسلوكه دائماً يحمل سمة السلامة من العيوب أو سمة الطهارة والنظافة.. وذلك أساس من أسس الجمال.

(٢) القصد:

هذه السمة تعني نفي «العبث» من حياة الإنسان المسلم.

وهي سمة عامة، وخط أصيل موازٍ لخط السمة الأولى «فالإنسان ــ الذي لم يخلق عبثاً ــ مطلوب منه أن لا يعيش عبثاً، إنه ينبغي له أن يعقل غاية وجوده، فيكون عمله في ضوء هذه الغاية، والهداية الإلهية تأخذ بيده لتنطلق به في طريق الرشد والصلاح..

فالعمل الذي يقوم به الإنسان ينبغي أن يكون له باعث وغاية، وأن يكونا إيجابيين..»[(١)].

وقد أراد الإسلام أن تكون هذه السمة مثل سابقتها، خطاً عاماً في تربية

---

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام، للمؤلف ص ٢٢٨.

الفرد، فيتعرف الغاية في كل ما يريد، ويصحح الباعث، وهذا ما قرر الحديث النبوي الشريف (إنما الأعمال بالنيات..)(١).

وإذن «فالقصد» أو «النية» يعني الإيجابية والعطاء الخير في كل ما يتجه الإنسان إليه، إنه تحديد لمسار الشيء ووضعه على قاعدة انطلاق في سبيل الخير.

وقضية النية الخيرة، أو «سلامة القصد» أمر يحكم عليه الإنسان نفسه، وأن يراقب الإنسان نفسه، فتلك أعلى درجات الرقابة ذلك أن الخوف يكون فيها من الله وليس من سلطة القانون..

وهذا عامل كبير في تأكيد «خيرية» النية، وبالتالي «خيرية» العمل، وذلك هو طريق الجمال..

إن سمة القصد تعني:

ــ البعد عن «العبث» أولاً.
ــ ثم هي تأكيد على نبل الغاية وشرف الدافع.
ــ ثم هي، تحرير لذاتية الإنسان من عيوب الباطن التي منها: الرياء والنفاق.

لهذا كله كانت أمراً عاماً.

(٣) التناسق:

سبق الحديث عن تناسق المنهج في الجزء الأول من هذه الدراسة(٢)، وضربنا لذلك عدداً من الأمثلة.

كما تحدثنا في الفصل السابق عن تناسق الباطن بعضه مع بعض، وفي القسم الأول من هذا الباب تحدثنا عن تناسق الظاهر بعضه مع بعض.

وفي ثنايا الفقرة الأولى من هذا الفصل تحدثنا عن التناسق بين الظاهر والباطن، وكيف انطلقا من قاعدة واحدة هي السلامة من العيوب.

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر الظاهرة الجمالية في الإسلام ص ٢٣٤-٢٣٥.

كل هذا يؤكد أن هذه السمة أمر مرتبط بالمنهج وهو الذي يتولى ضبطها، فهي حاصلة تلقائياً حين يطبق المنهج، وهذا أمر مشاهد.

وإن أي استطلاع عام للمنهج ليضع أمامنا خطوط التناسق واضحة جلية، وهي تتداخل وتتعاون، ويفسح بعضها لبعض المجال بحسب أولويات المنهج ذاته.

إن المنهج يقيم التوازن والتناسق والتناسب بين جميع العلاقات التي نذكر منها على سبيل المثال:

العلاقة بين العقل والجسم والروح.
والعلاقة بين الفرد وبين المجتمع.
والعلاقة بين الفرد وبين الدولة.
والتنسيق بين طاقة الإنسان وبين ما يطلب منه من مسؤوليات.
والتنسيق بين العمل للدنيا وبين العمل للآخرة.
والتنسيق بين النظام الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي..

انها أمثلة نذكرها بهذا الإيجاز الشديد لشدة وضوحها لمن له أدنى معرفة بالمنهج الإسلامي.

وإذن فالتناسق قائم في كل الاتجاهات، وعلى جميع المستويات. إنه التناسق العام الشامل.

وإن هذا ليجعل المتربي ــ في ظل هذا المنهج ــ على يقين من أنه في الطريق السوي، وأنه لا يخبط خبط عشواء، وأن حياته ليست مسرحاً للتجارب والتطبيقات التي قد يحالفها النجاح وقد تصاب بالفشل.

هذا الاطمئنان سر من أسرار جماليات هذه التربية الكريمة.

إن الإسلام يربي الإنسان على طاعة الله، ويطالبه بطاعة الوالدين وإذا كان هذان الولدان مسلمين فلا إشكال في الأمر، وإذا كانا غير مسلمين، فهنا يتدخل المنهج لينسق بين العلاقتين، لتصبح العلاقة بهما علاقة مصاحبة بالمعروف (وصاحبهما في الدنيا معروفاً).

ذلك مثل جزئي على ذلك التناسق الكبير.

(٤) التنظيم:

النظام جمال.

وهو سمة لا تقل وضوحاً في المنهج الإسلامي عن زميلاتها، إن لم نقل إنها من أكثرها بريقاً وبهاء.

وعلى طريقتنا في التزام الإيجاز في هذا الفصل، نستطيع الإشارة إلى بعض القواعد العامة، وقد نمثل لبعض الجزئيات.

ففي إطار القواعد العامة، التي تتعلق بتنظيم الأولويات كان من مقررات المنهج:

- إن الضرورات مقدمة على الحاجيات، وهذه مقدمة على التحسينات [١].
- أداء الفروض مقدم على أداء النوافل.
- السلامة من العيوب مقدمة على التجمل.
- رفع الضرر مقدم على جلب المصلحة.

وفي إطار القواعد العامة نوضح قاعدة «التيامن»:

قال الإمام النووي في كتابه «رياض الصالحين»:

«باب استحباب تقديم اليمين في كل ما هو من باب التكريم، كالوضوء والغسل والتيمم، ولبس الثوب والنعل والخف والسراويل، ودخول المسجد، والسواك والاكتحال، وتقليم الأظافر، وقص الشارب، ونتف الإبط، وحلق الرأس، والسلام من الصلاة، والأكل والشرب والمصافحة واستلام الحجر الأسود، والخروج من الخلاء، والأخذ والاعطاء وغير ذلك مما هو في معناه.

ويستحب تقديم اليسار في ضد ذلك.. كالخروج من المسجد وخلع الخف.. أ.هـ.

ثم أورد النووي رحمه الله الحديث المتفق عليه من قول عائشة رضي الله عنها:

---

(١) انظر في شرح ذلك: الظاهرة الجمالية في الإسلام ص ١٢٣.

(كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمُّن[1] في شأنه كله، في طهوره وترجُّله، وتنعله).

وهكذا فالتيامن نظام عام، وقاعدة مطردة في كل ما هو من باب التكريم، فإذا كان الإنسان أمام جماعة واراد السلام عليهم، بدأ بمن هو في اليمين، وإذا قدم لضيوفه شراباً بدأ بمن هو في اليمين..

كان ذلك حديثاً عن الكليات. فإذا انتقلنا إلى الحديث عن الجزئيات فإنك حيث نظرت في المنهج وجدت نفسك أمام نظام.

ففي الوضوء ينبغي أن تتبع الترتيب الذي ورد في الآية الكريمة[2].

والصلاة نظام في كل شيء منها.

فإذا صلى الإنسان منفرداً كان عليه أن يتبع الترتيب الوارد بشأنها، وإذا صلى في جماعة، كان عليه أن يضيف أمراً آخر وهو الانضباط في متابعة الإمام..

وفي ترتيب المصلين نظام، فالصفوف الأولى للرجال وتليها صفوف الصبيان ثم صفوف النساء.

ولكل صلاة وقت بدء ووقت نهاية..

والصوم انضباط ونظام.. في البدء والنهاية.

والتحية التي يلقيها المرء على زميله لها نظام. فالفرد يسلم على الجماعة، والماشي يسلم على الواقف، والراكب يسلم على الماشي..

والذهاب إلى صلاة العيد من طريق والعودة من طريق آخر..

والإسلام — بعد ذلك — كله نظام، إنه التزام بأمر أو ابتعاد عن منهي عنه.

وإذن، فالفرد الذي يربي في ظل هذا الدين، لا بد أن يكون للنظام أثره البعيد في نفسه.

* * *

---

(١) التيمن: أي استعمال اليمين.

(٢) الترتيب بحسب الآية الكريمة: غسل الوجه ثم اليدين إلى المرفقين ثم مسح الرأس ثم غسل الرجلين إلى الكعبين، وهذا الترتيب واجب في مذهب الإمام أحمد.

تلك هي السمات الجمالية، يحققها المنهج من خلال تعاليمه، وبهذا يستكمل الفرد جمالياته في عامة شؤونه وأحواله.

وإذا كان من مهمة للمربي، فهي لفت النظر إلى هذه الجوانب الجمالية، وربط بعضها مع بعض، حتى تستكمل اللوحة أبعادها ونكون أمام تصور كامل لهذا الجمال الذي هو غاية التربية الجمالية.

الباب الثالث

الإحساس بالجمال



يذهب علم الجمال عادة تحت هذا العنوان إلى الحديث عن التذوق الفني ومراحله المتداخلة من: التوقف والعزلة، والموقف الحدسي والطابع العاطفي والتداعي والتقمص الوجداني..

وكذلك بيان أسباب التفاوت الملاحظ بين الأفراد بصدد أحكامهم الجمالية..

مما يبدو فيه واضحاً طغيان علم النفس حتى غاب علم الجمال..

ويذهب بعضهم إلى الحديث عن لفظة (الحس) ودلالاتها.. مما يؤدي بعد ذلك إلى الحديث عن فلسفة الإبداع..

ونحن لا نريد الذهاب في هذا المسلك. وإنما نحاول بيان فطرية الإحساس بالجمال، وبيان أثر المنهج في المساعدة على تربيته وذلك هو موضوع الفصل الأول من هذا الباب.

ونبين في الفصل الثاني آثار غياب المنهج والخلل الناتج عن ذلك.

فذلك أمسُّ بموضوع التربية الذي نتحدث عنه.



الفصل الأول

الإحساس بالجمال

- فطرة
- أثر التربية
- أوليات في تربية الحس
- مسار الحس الجمالي
- التذوق الفني
- توازن الحس الجمالي



فطرة:

الإحساس بالجمال «حركة عاطفية في الروح وشعور بالفرح والطمأنينة، إنه هزة انفعالية وحلم ولذة خالصة، وهو ينتشر في الموضوع دون أن نعرف السبب في ذلك..» [١].

وهو أمر فطري في الإنسان، وليس من حاجة للبرهان على ذلك إذ هو أمر مشاهد، وقد سبق لنا الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل في الجزء الأول من هذه الدراسة[٢].

أما الذين أنكروا هذه «الفطرية» فقد بينا سبب إنكارهم الذي يرجع إلى نظرتهم المادية إلى هذا الإنسان[٣]. يقول هيغل: «وهذا الحس ـ حس الجمال ـ ليس فطرياً في الإنسان، كغريزة، أو كشيء معطى له من الطبيعة وممتلك من قبله منذ ولادته، كما يمتلك أعضاءه، العين على سبيل المثال، كلا، إنما المقصود به حس بحاجة إلى التكوين والتدريب»[٤]، وذلك أمر غير مستغرب ممن ترجع إليه النظرية الجدلية.

ولا نريد الخوض في أمور فلسفية ونكتفي بقول الغزالي وهو يقرر الواقع: «ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع..» [٥].

أثر التربية:

وتقريرنا لكون «الإحساس بالجمال» أمراً فطرياً، لا يعني أنه لا أثر للتربية

---

(١) الإحساس بالجمال. تأليف سانتيانا ص ٢٨٢.

(٢) و(٣) الظاهرة الجمالية في الإسلام ص ١٤٧-١٥٠.

(٤) هيغل (١٧٧٠-١٨٣١) هو صاحب النظرية الجدلية التي تبناها الماركسيون فيما بعد.

(٥) إحياء علوم الدين ٢٩٨/٤.

في تنمية وتوسيع مداه سطحاً وعمقاً. بل إن لها الأثر الكبير، وذلك أمر متفق عليه بين الذين يقولون بالفطرية وبين الذين يقولون بعدمها.

والأمر الذي نريد التأكيد عليه، هو أن المنهج الإسلامي قد قام بدور فعال في جعل أصول هذه التربية واقعاً يعيشه الناس دون أن يعرفوا فلسفتها في كثير من الأحيان.

فالإنسان المسلم الذي يعيش الإسلام، يتوضأ كل يوم عدداً من المرات ويغتسل كل أسبوع أكثر من مرة ويعتني بشعره ويقص أظافره ويتعهد نظافة ثيابه.. كل ذلك يحدث ولكنه قد لا يفكر بربط هذه الأشياء بعضها مع بعض، ودون أن يكون لديه فكرة متكاملة عن النظرة الجمالية في الإسلام، وإن كان يعيشها واقعاً علمياً.

وقد بينا في الباب السابق كيف تناول المنهج الوسائل العملية التي تقود الإنسان إلى الجمال في كل شؤونه. ذلك أمر يعلمه كل الذين يعيشون هذا الدين.

ومع ذلك: فما يحسن التنبيه عليه، هو الاهتمام ضمن العملية التعليمية على لفت النظر إلى الجوانب الجمالية في أوامر هذا الدين، وهو أمر مهمل في غالب الأحيان.

وأمر آخر، وهو أن الجمال من سماته التناسق، وإنما يظهر هذا التناسق جلياً واضحاً، حين ترد الجزئيات إلى الكليات، فتتحدد المعالم وهنا يتكامل الإحساس بالجمال بل وبتذوق الجمال. وهذا الأمر يحتاج إلى ثقافة عالية وعلم واسع بتشريع هذا الدين.

هذان الأمران هما مهمة التربية الإسلامية، حتى تؤدي واجبها تجاه جماليات هذا المنهج الكريم.

أوليات في تربية الحس:

ويحسن بنا أن نشير إلى أمر مهم، وهو توجيه المنهج للحواس، التوجيه الصحيح بحيث يتهيأ لها إدراك الجمال والوقوف على مواطنه، وإذا كانت الحواس هي المنفذ

الأول الذي يعبر الجمال منه إلى النفس والفكر، فإنا بحاجة إلى وقفة مع بعضها لنتبين السبيل الذي هيأه هذا الدين بغية الاستفادة من كل طاقاتها.

والحواس الرئيسة في هذا الميدان هي السمع والبصر:

فالسمع وسيلة الإحساس بالأصوات.. وتذوق جمالها.

والصوت يصل إلى الأسماع طالما أنه في دائرة مداها، وحتى يكون الإحساس كاملاً، لا بد من إنصات المستمع إنصاتاً كاملاً فذلك هو الطريق لاستجماع الفكر وتفتح المشاعر.. وعندها يدرك المنصت ما لا يدركه غيره.

نستطيع فهم هذا جلياً من الأمر القرآني الكريم، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[1].

فمن أجل تذوق لغوي للألفاظ.

ومن أجل تذوق أدبي للتعبير.

وفي سبيل تذوق للجرس الموسيقي.

وفي سبيل إدراك للمعنى.

وفي سبيل تمتع تعيشه المشاعر بجمال الصوت.. كان الإنصات أمراً ضرورياً.

إنه الخطوة الأساسية في تدريب السمع على القيام بمهمته.

ولهذا كثرت الأوامر التي تطلب من الإنسان أن يحسن استعمال سمعه، ولعلنا ندرك الآن بعض السر في التشديد على الإنصات يوم الجمعة لسماع خطبتها.

وحسن الإنصات يؤدي دوره في اتجاهين: في أداء مهمة إدراك الجمال للمستمع نفسه، وفي إتاحة ذلك للآخرين من حوله.

وحينما يرتقي الذوق الجمالي إلى المستوى المطلوب، فإننا نقرأ تلك الأخبار التي تروي لنا كيف كان لهذه التربية أثرها الفعال.

قال الذهبي في طبقات القراء: كان يحيى بن وثاب المتوفى سنة ١٠٣ هـ من

---

(١) سورة الأعراف. الآية ٢٠٤.

أحسن الناس قراءة، وكان إذا قرأ لم تحس في المسجد حركة، كأن ليس في المسجد أحد [1].

فهل هناك حسن استماع أفضل من هذا؟

والحاسة الثانية، هي حاسة البصر، ومجالها أوسع من مجال حاسة السمع في ميدان الجماليات، وتربية هذه الحاسة أمر مهم، وقد عني القرآن به، ففي كثير من الآيات تناول القرآن الكريم بيان الطريق المؤدي لأداء حاسة البصر مهمتها على الوجه الصحيح.

إنها نظرة المتأمل الذي ينفذ بصره عبر المشاهَد إلى ما وراءه، أما الوقوف عند المنظر وحسب فذلك قصور في الإدراك ونقص في التربية.

إنه لا بد من التأمل.. وقد يضطر الإنسان بعض الأحيان أن يطيل هذا التأمل حتى يصل إلى تذوق جمالي.. لا مجرد حسٍّ عارض. ولو ذهبنا نستعرض الآيات التي رسمت استعمال البصر لطال بنا المقام ولكننا نقول ما تكاد سورة من السور تخلو من دعوة إلى الإبصار وإلى الاستماع.. الإبصار المنتج والاستماع المنتج.. ولهذا تكرر قوله تعالى: ﴿أولم ينظروا..﴾ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا..﴾ ﴿أفلم ينظروا..﴾ كما ذم القرآن أولئك الذين لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها.

إنه خط واضح في تربية السمع والبصر..

مسار الحس الجمالي:

للحس الجمالي مساران:

أحدهما: يسير أفقياً، فيستوعب السطح.

والثاني: يتجه عمودياً يحاول سبر الأغوار.

وبتعبير آخر: يتجه الأول إلى الظواهر والأشكال، بينما يتجه الثاني إلى المعاني والقيم.

---

(١) طبقات القراء. الذهبي ١/٥٢.

ومن المتفق عليه، أن سرعة انتشار الأول عظيمة، بينما يسير الثاني ببطء في الاتجاه الآخر.

ونستطيع أن نقول إن المسار الأول هو: إدراك الجمال الحسي، والمسار الثاني هو إدراك الجمال المعنوي.

(١) المسار الأول: الجمال الحسي:

أول ما يدركه الحس من الجماليات، هي الظواهر والأشكال المادية، ويكون الإدراك لهذه الأشياء سريعاً، لأنه يتناول السطوح، ويعتمد على الحواس في إدراكه.

ويكاد يكون الاتفاق قائماً على هذا الأمر.

يقول هيغل: «إن الإدراك الحسي البحت هو أسوأ إدراك وأقله ملاءمة للروح. وهو يكمن بصورة رئيسية في النظر، في السمع، في الإحساس..» (١).

وقد سبقه الإمام الغزالي وغيره من المسلمين إلى التفصيل الدقيق في هذا الأمر، فالإنسان في نظر الغزالي، مركب من جسد مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة،.. وبعد أن قسم الجمال ــ تبعاً إلى ذلك ــ إلى قسمين: جمال الصور الظاهرة وجمال الصور الباطنة قال: والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب (٢).

وهذا النوع على الرغم من أنه يمثل أوليات الإدراك الجمالي، إلا أنه مهم، لأنه الأساس الذي يقوم عليه البناء. يقول «سانتيانا»: إن الجمال الحسي ليس أهم العناصر في التأثير ولا هو أعظمها، ومع ذلك فهو أكثرها بدائية وشمولا باعتباره يتعلق بالأساس الذي لا بد للبناء أن يقوم عليه (٣).

إن طبيعة هذا الإدراك الحسي تجعله قدراً مشتركاً بين جميع الناس لأن اعتماده

---

(١) المدخل إلى علم الجمال. هيغل ص ٧٤. ترجمة: جورج طرابيشي.

(٢) إحياء علوم الدين ٥٣/٣ و٣٠٣/٤.

(٣) الإحساس بالجمال. تأليف «سانتيانا» ص ١٠٤ ترجمة محمد مصطفى بدوي مكتبة الانجلو مصرية.

على الفطرة، والكثير من الناس يقفون عند هذا النوع ولا يتجاوزونه، لأنه هو البارز على السطح، فيستطيع كل إنسان أن يتعامل معه.

وقد أكد هذا المعنى ــ الذي سبق العلماء المسلمون إلى سبر دقائقه ــ «سانتيانا» في كتابه «الإحساس بالجمال» فقال: إن انتشار الجمال الحسي على نطاق أوسع يجعله في متناول الجميع..[1].

نخلص من هذا إلى أن إدراك الجمال الحسي يتميز:

ــ بسرعته.
ــ وأنه في الحد الأدنى منه، قدر مشترك بين الناس.
ــ وأنه أساسي.

فالوردة الجميلة، لا يحتاج إدراك جمالها إلى وقت، وجميع الناس لا يختلفون في ذلك، والذي لا يدرك مثل هذا الجمال ــ وهو أساسي ــ فإن من المشكوك فيه أن يكون قادراً على إدراكٍ أعلى من الجمال، كالذي يحتاج إلى قدرة عالية من التذوق الجمالي.

وهذا الإدراك في أصله فطري، ويرفع من مستواه، العطاء التربوي الذي يصعد به إلى أعلى، كما يتسع به على دائرة السطح.

(٢) المسار الثاني: إدراك الجمال المعنوي:

الإحساس بالجمال إدراك أولي، فإذا نمي هذا الإدراك وربي ودرب.. أصبح ملكة تأخذ أبعادها في أغوار النفس وأعماقها، ويصبح الجمال جزءاً من أي عملية إدراكية، يحسب له حسابه، وحينئذٍ يتكون لدى الإنسان «حس جمالي» أو ما يسميه بعضهم «ذوقاً جمالياً» تكون له القدرة على إدراك الجمال مباشرة حيثما كان وأينما وجد.. وإدراك الوجه المقابل أيضاً، أي إدراك الخلو من الجمال.

فإذا تجاوزنا السطح وذهبنا في الأعماق وتجاوزنا النظرة العابرة المباشرة إلى تكرار النظر، أو الوقفة المتأنية.. فإننا نكون أمام «التذوق الجمالي».

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣.

إنه إدراك للمعاني والنسب، للمضمون والموضوع، وتعامل مع السمات الجمالية بحيث تأخذ أبعادها على الشيء المنظور أو الموضوع في دائرة الإدراك والتأمل، إنه انتقال من الإدراك الحسي الظاهر إلى إدراك معنوي باطن، وهو الذي يكون بحاسة «القلب».

يقول الإمام الغزالي: «ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر، وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق، وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب»[1].

وقد بينا في القسم الثاني من الباب السابق العوامل التي تنمي هذا الذوق وترفع من مستواه حتى يصبح تذوقاً.

ونستطيع القول بأن ساحة التذوق وميدانه هو الجمال المعنوي، بينما يرتع الحس الجمالي في ميدان الجمال الحسي الظاهر، فإذا توافق الأمران وقام التناسق بينهما كنا أمام ذروة الجمال، وتلك صفة الجمال في صنعة الله تعالى.

وخلاصة القول:

إن إدراك الجمال يسير عبر طريق واحد، إنه يبدأ من الظاهر ثم يتابع طريقه إلى الباطن أو ما وراء الظاهر.

وليس هناك ظاهر وحده، وليس هناك باطن وحده. فاللوحة فيها الخط واللون وتوزيع المسافات.. والظلال.. ولكن تلك هي النظرة الأولية التي لا بد من استشفاف ما خلفها.

والمعنى ــ أي معنى ــ إنما يبدو من خلال «ظاهر»، فالكرم يعرف من خلال العطاء، والحلم يعرف من خلال التصرف حين الغضب.. والإيمان من خلال المواقف..

فالإحساس بالجمال يبدأ الطريق من الظاهر ثم يتابع إلى ما وراء ذلك ولكن

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٨٠.

الكثير من الناس يلهيهم الوقوف عند بداية الطريق.

وقد أكد القرآن على ضرورة اتمام المسير. والانتقال من الصنعة إلى الصانع ومن المشاهَد إلى غير المشاهد.. تلك هي السبيل في الوصول إلى تذوق جمالي سليم.

التذوق الفني:

التذوق الفني ليس أكثر من نوع من أنواع التذوق الجمالي، فما الفن إلا الجمال مجسداً في موضوع..

ذلك هو المفهوم الإسلامي.

ولكن حينما سار الفن الحديث في اتجاه مغاير لاتجاه الجمال، ثم قطع صلته به بعد ذلك نهائياً، ظهرت قضية التذوق الفني.

إنه إدراك لعلاقات فنية، قد تكون جميلة، وقد تكون قبيحة، إنه محاولة لتفسير تلك المعميات التي ينتجها بعض الفنانين، إنه تعرف على لغة كل فنان ومحاولة فهم إنتاجه.

وبناء على هذا فإن «عملية التذوق الفني يمكن اعتبارها اتصالاً أو ملاءمة بين طرفين: الطرف الأول هو الفنان ممثلاً في أعماله الفنية، والطرف الثاني هو المستمتع الذي ينظر إلى هذه الأعمال ويحاول أن يستمتع بها»[(١)].

وإذا كنا وفق المفهوم الحديث، قد أعطينا للفنان ملء الحرية في تقديم ما يريد، حتى ولو كان ما يقدمه كومة من أقذار[(٢)]، فإن على المشاهد أن يجري في لهاث متتابع يحاول فهم وتذوق هذه الأعمال التي قد تكون نوعاً من العبث أو العبث ذاته.

فالتذوق الفني، لا رصيد له في النفس الإنسانية، كرصيد التذوق الجمالي الذي يستند إلى الفطرة، ولذا كان بحاجة إلى دربة طويلة المدى يدرس المستمتع

---

(١) التذوق الفني. تأليف د. حمدي خميس ص ١٥.

(٢) انظر كتابنا (الفن الإسلامي التزام وإبداع) الفصل الأول من الباب الثالث.

من خلالها المدارس الفنية، والتشعبات الناشئة عنها، ويتعرف على أبجديات كل مدرسة، بل وكل فنان، وإذا كانت هذه الأبجديات لا تنتهي، إذ لكل فنان أبجديته.. فسوف يظل هذا المتذوق بحاجة إلى متابعة كل جديد.. وربما إلى تعديل ذوقه حتى يتلاءم مع الجديد.

وبما أن التذوق الفني قد قطع صلته بالجمال فقد أصبح يحتاج إلى معطيات مسبقة، يحاول المستمتع الاستعانة بها في عملية التذوق تلك. ويلخص لنا الدكتور حمدي خميس هذه المعطيات فيقول:

«تنحصر مسؤولية المستمتع في أمور ثلاثة:

أولاً ــ أن يدرك المستمتع طبيعة العمل الفني وهي:

١ ــ الفن تعبير عن الواقع وليس تسجيلاً له.

٢ ــ الفن رموز مجردة، ولكنها على صلة بالواقع.

٣ ــ الفن من الناحية الوجدانية أكثر تعبيراً عن الحقيقة من الواقع.

ثانياً ــ أن يدرك المستمتع مدى العلاقة بين قيمة العمل الفني وبين كل من:

١ ــ الموضوع الذي يتناول العمل الفني.

٢ ــ الخامة المستخدمة في العمل الفني.

٣ ــ الحجم الذي يخرج عليه العمل الفني.

٤ ــ الزمن الذي استغرقه الفنان في إنجاز العمل الفني.

٥ ــ العصر الذي يوجد فيه العمل الفني.

ثالثاً ــ أن يدرك المستمتع مدى التفرقة بين:

١ ــ التطور العلمي والتغير الفني.

٢ ــ الفن الجميل والفن التطبيقي.

٣ ــ الإنتاج الفني اليدوي والإنتاج الفني الآلي» [1].

وما ندري وبعد تلك المسؤوليات الكثيرة هل بقي «للتذوق» ذاته من دور؟

---

(١) التذوق الفني. تأليف د. حمدي خميس ص ٢٤، توزيع دار المعارف بمصر.

أما الجمال فقد أضحى جزئية يستفاد منها للتفريق بين الفن الجميل والفن التطبيقي.

وهكذا: أصبح التذوق الفني إختصاصاً، تمارسه فئة قليلة من الناس. وهذه الفئة غالباً ما تختلف في أحكامها التذوقية اختلافاً كبيراً قد تصل الزاوية بين ضلعيه إلى (١٨٠) درجة.

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الفن قد فقد تعريفه فلم يعد له هوية يعرف بها أو حدود تميز معالمه.

ولقد أدى هذا الخلل إلى خلل نفسي لدى كثير من الذين يدعون الخبرة الفنية.. والذوق الفني.. فتظاهروا بغير قناعاتهم، فأظهروا إعجابهم بما لا يعجب، وغضوا من مكانة أعمال فنية.. تقليداً للآخرين. وهذا الأمر قد تنبه له «سانتيانا» وأشار إلى جانب منه بقوله:

«من أكبر الدلائل على النفاق عدم التأثر بالجمال الحسي، فحينما يظهر على الناس أنهم لا يحفلون بالآثار الأولية الأساسية، وحينما يعجزون عن رؤية الصور اللهم إلا في الإطارات، أو رؤية أي جمال في غير نتاج كبار الفنانين، حينئذٍ يحق لنا أن نشك في صدقهم، ويحق لنا أن نظن أنهم إنما يرددون الكلام كالببغاوات، وأن معرفتهم التاريخية واللفظية إنما تخفي وراءها نقصاً طبيعياً في إحساسهم بالجمال»(١).

ونستطيع القول بأن السبب المباشر لهذا الخلل هو فصل الذوق الفني عن الذوق الجمالي، حيث فقد الأول أهم خصائصه.

توازن الحس الجمالي:

تبين لنا مما سبق كيف استطاع المنهج الإسلامي أن ينطلق بالحس الجمالي انطلاقاً متوازناً بحيث يغطي دائرة المشاعر في كل جوانب النفس من جهة، وفي كل جوانب الحياة من جهة أخرى.

---

(١) الإحساس بالجمال. تأليف «سانتيانا» ص ١٠٤ ترجمة محمد مصطفى بدوي.

ثم كانت مهمة التربية الجمالية بعد ذلك هي تنمية هذا الحس بالأسلوب نفسه، بحيث يكون هذا النماء متوازناً، فيكون انتشاره على السطح في دوائر يعقب بعضها بعضاً، كما يتجه إلى الأعماق بالأسلوب نفسه، وقد كان للمنهج أثره الكبير في مساعدة التربية، بحيث تكون نماء للأصل، وبهذا ضمن التوازن في بناء الحس الجمالي.

وبناء على ذلك، كانت رهافة الحس عامة، ودقة الشعور شاملة فلم تكن استطالة في جانب على حساب تجويف في جانب آخر، أو تضخماً في جهة وضموراً في جهة أخرى.

وقد سبقت الأمثلة على ذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب، حينما تحدثنا عن جمال الظاهر وجمال الباطن.

أما في علم الجمال الحديث فقد قُصر موضوع الحس الجمالي على الحس الفني، وهكذا ضُيقت الساحة، ثم اقتصر على جانب من جوانبها. فهبطت كفة وارتفعت أخرى فكان ذلك الخلل الكبير..

وهو ما نتحدث عنه في الفصل التالي..



الفصل الثاني
عندما يغيب المنهج

- غياب المقاييس
- تناقض الأذواق
- خلل في نفسية الفنان
- خلل في الذوق الجماعي



إن المنهج الإسلامي ــ كما رأينا ــ يحرص على التوازن في تربية الحس الجمالي، لأنه يريده نماء للأصل.

وقد رأينا عنايته بالإنسان من حيث مظهره وسلوكه وأخلاقه و إنتاجه، وكيف اتجه ــ بعد ذلك ــ إلى كل جانب من هذه الجوانب فحقق التوازن فيه.. فمن حيث المظهر ــ مثلاً ــ طلب العناية بالجسم والثياب والمكان وفق نظام دقيق يقوم على الطهارة أولاً، ثم العمل على تحصيل الجماليات..

وهكذا ذهب في كل الجوانب الأخرى..

وبهذا كان الحس الجمالي لدى المسلم حساً عاماً مرهفاً، تجاه كل ما يصادفه.

إنه لن يكون مرهف الحس إزاء الصوت العذب، ثم يكون بليداً أو جاهلاً إزاء اللوحة الفنية الجميلة، أو إزاء اللوحة الشعرية الصادقة..

إنه لن يكون مرهف الحس أمام الفن الجميل.. ثم يكون متبلد الحس أمام اللوحات الواقعية التي تتطلب منه تحويل هذا الحس إلى سلوك وعمل..

إنه لن يكون مرهف الحس وهو يقف أمام لوحات «موريللو» التي تصور الأطفال الفقراء.. ثم يكون متبلد الحس وهو يرى هذه اللوحات نفسها في واقع الحياة.. إنه تفاعل في كل الاتجاهات.

قد لا يكون سموه فيها متماثلاً أو متساوياً، ولكنه لن يهبط في واحد منها عن «الحد الأدنى» في حال من الأحوال. وبتعبير آخر، إنه قد لا ينتج الجمال في بعضها، ولكنه لن ينتج القبح في واحد منها أبداً، وهذا هو المهم.

ويعود الفضل في هذا التوازن إلى المنهج نفسه، أما عندما يغيب المنهج فإن الخلل يعم، وتسيطر الفوضى.

ونحاول الحديث عن بعض هذا الخلل.

غياب المقاييس:

أغرق الروائي الفرنسي المشهور «أميل زولا» [١٨٤٠-١٩٠٢] في أسلوبه في الأدب المكشوف، فأخذ يصف حياة شخصياته معبراً عن نزعاته الداعرة وعن النزوات الجنسية لشخصياته..

ووجد رواجاً لأدبه.. ووجد معارضة أيضاً.

وكتب الشاعر الفرنسي «شارل بودلير» [١٨١٢-١٨٦٧] ديوانه «أزهار الشر»، ذلك الديوان الذي فاق فيه كل من كتبوا في الأدب المكشوف بما ساقه من وصف جنسي لنزوات المرأة وحياتها الشهوانية، وأجزاء جسمها، وغير ذلك من مسائل، قد يمنع الحياء من التحدث عنها، كما يقول الدكتور محمد علي أبو ريان (١).

واستنكر الناس فعله.. وحكم القضاة بمصادرة ديوانه.

ووقف كل من «اميل زولا» و«فيكتور هيجو» يدافعان عنه، بل إن «فيكتور هيجو» رمى القضاة بالجهل والتعصب وعدم تذوق الأدب، وبأنهم خانوا حرية الفن.

ونحن لا نشك في الذوق الأدبي لهيجو أديب فرنسا الكبير، ولا نشك بأنه أكثر تذوقاً للأدب من القضاة الذين هم رجال قانون... ولكن السؤال المطروح: ما هو المقياس الذي اعتمده كل من الفريقين؟

قد يقال: إن هيجو أعطى حكمه بمقياس أدبي، وأعطى القضاة حكمهم بمقياس أخلاقي.

ولكنا نقول: فأين التنسيق بين المقاييس، حتى لا يقع هذا التناقض العجيب..

---

(١) انظر فلسفة الجمال. محمد علي أبوريان ص ١١٧.

وأما النحات الفرنسي المشهور «رودان» فإن معظم تماثيله، هي أجساد نساء عاريات، قد أبرز فيها ملامح الأنوثة الصارخة..

وقد وجد من استحسن ذلك ورآه غاية في الفن والجمال، ووجد أيضاً من استهجن فعله واستقبحه.. ونتساءل: ما هو المقياس؟

ورسم «ادوار مانيه» لوحته المشهورة «أوليمبيا»، فثار النقاد في وجهها قائلين عن تلك المرأة التي صورها، إنها نوع من أنثى الغوريلا، إنها مسخ دميم من المطاط محاط بالسواد، إنها نموذج التقط من أحط أوساط الصعاليك، ذات بطن صفراء مقززة، ترقد على الفراش عارية، وتتحدى كل قيم الذوق الجميل والأخلاق الفاضلة، وعلق النقاد أيضاً على هذه اللوحة بأنها شيء مضحك..

ولكنها لوحة مشهورة.. فما هو المقياس؟

تلك أمثلة يسيرة من عالم يضج بالمتناقضات، تعطلت فيه المقاييس وما ذاك إلا لفقدان المنهج الذي ينسق ويوازن بين الأنظمة وبين القيم فلا يتعارض الحق مع الخير ولا يتعارضان مع الجمال.. وتلك هي خاصية المنهج الإسلامي التي تفرد بها.. فلم يشاركه غيره فيها.

تناقض الأذواق:

وكان من آثار غياب المنهج اختلاف الذوق الجمالي من أمة إلى أمة أخرى، وقد يصل هذا الاختلاف ــ بعض الأحيان ــ إلى التناقض، فالشي الجميل في نظر أمة، قد يكون قبيحاً في نظر أمة أخرى.

ويسجل هذه الملاحظة «هيغل» فيقول: وإذا انتقلنا من الأفراد وأذواقهم الجزافية، إلى التأمل في الأذواق الملحوظة في أمم شتى لوجدنا أنها بدورها تختلف من أمة إلى أمة أخرى.. وأن مفهوم الصيني عن الجمال يختلف عن مفهوم الزنجي، وأن لهذا الأخير طبيعة مغايرة لطبيعة الأوربي، وبالفعل، إذا تأملنا في الأعمال الفنية لتلك الشعوب غير الأوربية، وفي صور آلهتها.. لوجدنا أن تلك الصور، العظيمة الجلال في أنظار تلك الشعوب، ما هي إلا أوثان كريهة، مثلها في ذلك، من جهة أخرى مثل موسيقاها التي ترن في آذاننا على نحو لا يقل بشاعة، بينما تجد

تلك الشعوب من جانبها، تماثيلنا ورسومنا وموسيقانا غير ذات معنى، بله سخيفة وقبيحة [١].

إن هيغل لم يهتد إلى تعليل صحيح لهذا الاختلاف، ولو أنعم النظر قليلاً لوجد أن العالم الإسلامي، على اختلاف شعوبه.. وعلى سعة رقعته، وعلى امتداده عبر القرون، لا وجود فيه لتلك الظاهرة. فليس هناك شيء جميل في نظر بعض المسلمين.. قبيح في نظر بعضهم الآخر. قد يحصل خلاف على مستوى درجة الجمال، فيكون الشيء جميلاً في نظر شعب وجميلاً جمالاً أخاذاً في نظر شعب آخر، أما أن يكون الخلاف حول الأصل، أي بين القبح والجمال فهذا أمر لا وجود له.

ومرجع ذلك ولا شك إلى الوحدة.. التي قررها المنهج في بناء هذه الأمة [٢].

خلل في نفسية الفنان:

الفنان هو الإنسان الذي يتجسد فيه الحس الجمالي، فيغدو مرهف الحس قوي الملاحظة، سريع البديهة، يستنبط الجمال ويتتبع خيوطه الدقيقة الشفافة في كل ما تقع عليه عينه..

وهو قبل هذا، ذلك الإنسان السوي المتوازن [٣].

قد ترتفع مشاعره وأحاسيسه في جانب، ولكنها لا تهبط في أي جانب آخر عن «الحد الأدنى» الذي سبق الحديث عنه.

ولكننا حين ندرس حياة كثير من الفنانين الغربيين، لا نجد هذا التوازن، وإنما نجد تضخماً في جانب وهزالاً في جوانب أخرى، ونجد ارتفاعاً في زاوية وانخفاضاً في زوايا متعددة، الأمر الذي جعل من الفنان إنساناً غير سوي.. حتى اعتبرت الفنية والإبداع حالة من الهوس أو المرض..

إن مشاعر الحس الجمالي في نفس الفنان ينبغي أن تنير بشعاعها كل جوانب نفسه.. حتى يكون عطاؤه جميلاً في كل الاتجاهات.

---

(١) المدخل إلى علم الجمال. تأليف هيغل ص ٨٧-٨٨ ترجمة جورج طرابيشي.

(٢) انظر فصل (الوحدة الفنية) في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

(٣) انظر بالتفصيل حديثنا عن الفنان في كتابنا «الفن الإسلامي التزام وإبداع».

إن «شكسبير» شاعر الأنكليز الكبير، كان ـــ كما هو مشهور عنه ـــ لا يهتم بنظافة نفسه، وكان إذا لبس ثوباً جديداً لا يخلعه حتى يبلى؟!

و«بيكاسو» الفنان الكبير، صاحب الشهرة العريضة، كان لا يحسن اختيار ثوب جميل، فقد قالت زوجته الرابعة في مذكراتها: وما زلت أذكر أول ثوب اشتراه لي، وكان من الصعب أن يجد أقبح منه..!!

ويذهب المصور «سيزان» يوم وفاة أمه، إلى مرسمه، ولم يشارك في تشييع جنازتها، رغم إيمانه بالمسيحية الكاثوليكية..!!

وأمثلة.. وأمثلة..

إن الشعور الجمالي لدى هؤلاء وأمثالهم، ليس أكثر من تضخم مرضي، برز في جانب واحد وبقيت الجوانب الأخرى بليدة الحس بعيدة عن النور والضياء.

ولعل هذه الظاهرة لدى الفنانين، هي التي دفعت أصحاب مدرسة التحليل النفسي للنظر إلى الفنان وكأنه شخص مريض، منطوٍ على نفسه، يحاول عن طريق أعماله الفنية، أن يجد فيها وسائل ترفيه، ومنافذ ينفس بها عن رغباته المكبوتة، التي جعلته في دوامة من الألم والتوجع (١).

ويذهب «أدلر» إلى أن الإبداع الفني والنبوغ مدفوعان بالشعور بالنقص وما يولده من صراع نفسي لا سبيل إلى القضاء عليه إلا بالتعويض.

ولكننا نعلل هذه الظاهرة ـــ أيضاً ـــ بغياب المنهج الصحيح الذي يربي النفوس التربية السليمة.

خلل في الذوق الجماعي:

إن التربية الفعالة تظهر آثارها في المجتمع جلية واضحة، ونحب في هذه الفقرة أن نتحدث عن المدن باعتبارها تمثل عينة عشوائية من الأمة، فنقارن بين مدينة غربية اشتهرت بالنظافة والإضاءة، وبين بعض المدن الإسلامية.

---

(١) انظر: فصول في علم الجمال. عبد الرؤوف برجاوي ص ١١٦ ط ١.

ومادة المقارنة هي «النظافة» باعتبارها السمة الجمالية الأولى، وما لم تتوفر هذه السمة فإن الحديث عن السمات التي تليها ضرب من العبث، لأن البناء لا يقوم بغير أساس.

والمدينة الغربية هي «باريس» عاصمة النور!! كما يسميها كثير من كتابنا المستغربين الذين بهرتهم المدينة الغربية.

نختارها باعتبارها عاصمة الفن، ففيها نشأت معظم المدارس الفنية الحديثة، وفيها يقام مهرجان سنوي للزهور يزوره أكثر من مليون زائر..

يقول جمال قطب: وقد بلغ من حب الشعب الفرنسي للزهور أن بلغ الإنفاق السنوي على شرائها خمسة مليارات فرنك، إنه حب الفن وتذوقه الذي يهذب الوجدان ويفتح البصائر على آيات الجمال [1].

وإذا كان حب الزهور خطوة متقدمة في طريق الجمال، فما بال الخطوة الأولى، وهي حب النظافة؟

نترك الحديث عن هذا الجانب لمجلة الوطن العربي حيث قالت:

تحقيق طريف عرضه التلفزيون الفرنسي قبل أيام، أثبت أن سكان العاصمة يفتقرون إلى النظافة!! فقد سأل صاحب البرنامج مجموعة من الباريسيين والباريسيات عن عدد المرات التي يستحمون فيها (كل شهر.. لا كل أسبوع) فجاءت النتيجة أن بينهم وبين الماء والصابون علاقة غير حميمة بالمرة، هي أقرب إلى الجفاء المستمر.

وإذا تركنا ما شاهدناه على الشاشة، وتصفحنا المجلات الفرنسية، لوجدنا العديد من الإعلانات عن مستحضرات لمكافحة القمل، الذي يسكن رؤوس الكثيرين.. وأجسامهم.

وفي المدارس الفرنسية، تقوم لجان صحية بحملات تفتيش دورية، لفحص رؤوس التلاميذ، تنتهي عادة بإعلان يضعه المدير على باب المدرسة يقول: أيها

---

(١) المجلة العربية. العدد ٥٥ عام ١٤٠٢.

الآباء، أيتها الأمهات، لقد تبين بعد الفحص أن القمل ينتشر في رؤوس ٨٠٪ من التلاميذ، نرجو علاج أبنائكم.

إن إعلاناً مثل هذا يفاجئنا في عاصمة مثل باريس.. ولكنا لن نستغرب الأمر إذا علمنا أن كثيراً من الباريسيين يستعيضون عن الحمام بمسح أجسامهم بالكولونيا... وأن الكثير من البيوت تخلو من الحمام في عاصمة النور(١).

تلك هي باريس.. مليارات من الفرنكات تنفق لشراء الزهور ومليارات أخرى من القمل تأخذ مكانها في الرؤوس والأجساد. ذلك أن البيوت لم تؤت من أبوابها.

إنها عاصمة النور في أواخر القرن العشرين!!

ونعود إلى الوراء مع الزمن، نراجع الحساب مع بعض المدن الإسلامية.. إننا لن نتحدث عن الزهور، لأن رائحتها ــ وحدها ــ لا تمنع القمل، ولكنا نتحدث عن النظافة، فهي وحدها، بصفاء رائحتها، تستطيع أن تقضي على القمل وغيره من الحشرات..

والحديث عنها، هو المنطق الصحيح لأنها الخطوة الأولى ــ كما رأينا ــ في طريق الجمال.

وتقاس النظافة في مدينة ما، بكمية الوسائل المؤدية إليها من حمامات ومغاسل..

يقول الدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه (القيم الحضارية في رسالة الإسلام):

«ومن آثار حضارة الإسلام المعروفة، إنشاء الحمامات والمغاسل وموارد المياه العامة استجابة لأوامر الإسلام في الطهارة والوضوء والغسل، وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام، وروى الخطيب البغدادي أنه كان في بغداد في عهد المقتدر العباسي ٢٧ ألف حمام،

---

(١) مجلة (الوطن العربي) العدد ٣٩٤، أيلول عام ١٩٨٤ تحت عنوان (حمام).

وصلت في عهود أخرى إلى ٦٠ ألفاً، ويذكر المقريزي، أنه كان بالفسطاط ألف ومئة وسبعون حماماً. وكان الحمام متعدد الحجرات، وقد رصفت أرضه بالفسيفساء، وبطنت جدرانه بالرخام، وقد أحاطت حجرات الحمام بقاعة وسطى واسعة تتوجها قبة تتخللها كوات صغيرة عليها زجاج ينفذ خلاله الضوء..» [١].

ويحدثنا الدكتور أحمد محمد الطوخي ــ في مقال له ــ عن غرناطة فيقول:

«يحدثنا الكتاب أن الغرناطيين كانوا أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم، ومنهم من لا يكون عنده إلا ما يقوت يومه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها» [٢].

«وعندما زار الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل غرناطة في عهد السلطان أبي الحسن علي (٨٦٦-٨٩٠ هـ /١٤٦١-١٤٨٥ م) أعجب بتنظيم الحمامات.. على الطريق بين مالقة وغرناطة.. وقد خصص حمام للنساء، وآخر للرجال حيث يدخل الداخل إليها للاغتسال من غير أجرة».

«وفي عام ١٤٩٤ م عندما زار الرحالة الألماني «خيرونيمو مونزر» غرناطة دهش لنظافة الغرناطيين الشديدة، وتحدث عن صغر حجم منازل المسلمين بها ويشبهها بأعشاش العصافير.. ويضيف أن هذه المنازل كانت مهدمة من الخارج نظيفة من الداخل..» [٣].

وفي حديث آخر عن مدينة إسلامية أخرى كتبت المستشرقة الألمانية «زنغريد هونكه» تقول:

«ظلت قرطبة سيدة المدن، وكانت بضواحيها الثماني والعشرين... حول منتصف القرن العاشر أكبر مدن أوربا كلها، وعلاوة على تلك القصور حوت قرطبة (١١٣) ألف منزل و(٦٠٠) مسجد و(٣٠٠) حمام و(٨٠) مدرسة و(١٧)

---

(١) القيم الحضارية في رسالة الإسلام ص ١١٦ الدار السعودية للنشر ط ١.

(٢) نقلاً عن نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٨.

(٣) كان ذلك بعد سقوط غرناطة بعامين.

مدرسة عليا، و(٢٠) مكتبة عامة فيها عشرات الآلاف من الكتب، كان ذلك حال قرطبة في وقت لم يتجاوز فيه تعداد أي من المدن الأوربية (٣٠) ألف نسمة، إذا استثنينا القسطنطينية. ولم يكن في هذه المدن إقليم أوربي يملك مدرسة عليا أو مستشفى، كما ندر فيها وجود المكتبات العامة أو الحمامات. ولم تعرف أوربا آنذاك الشوارع المرصوفة بل كانت شوارعها ملأى بالقاذورات والوحل.

وبينما تصف جريدة «كولونيا الألمانية» إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز في عددها الصادر يوم ٢٨ مارس ١٨١٩ م بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهي، كانت شوارع قرطبة حوالي عام (٩٥٠) م تزدان بثمانين ألف متجر، وتضاء بمصابيح ثبتت على حيطان المنازل، وتباشر فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران.

ومضى على ذلك قرنان من الزمان قبل أن تتخذ باريس عام ١١٨٥ م من قرطبة مثالاً لها، فترصف شوارعها وتنظفها، ومضى قرن آخر قبل أن تحذو بقية المدن الأوربية حذو باريس»[(١)].

إنها جولة واسعة المدى. وقفنا فيها على عدة مدن...

وكانت زيارتنا لبعضها في القرن الثالث الهجري، وكانت زيارة بعضها الآخر في القرن التاسع الهجري..

اختلف المكان، واختلف الزمان، وتعددت الشعوب.. وأسلوب الحياة واحد.

إن التفسير الوحيد لهذه الظاهرة، هو التربية التي تبناها المنهج الإسلامي، والتي اهتمت بالفرد من داخله، اهتمامها بظاهره. فباتت النظافة ديناً يلتزم به، ولم تعد تكليفاً يجد فيه المشقة والتعب.

ومن هنا كانت الجماليات نابعة من داخل النفس يهتم بها المسلم حتى ولو كان منفرداً، لا يراه أحد من الناس، ولا يجتمع به أحد. ليس هذا في باب

---

(١) كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) ص ٤٩٩ ط ٧.

النظافة المادية وحسب بل وفي باب النظافة المعنوية، بل وفي الأدب الاجتماعي العام.

إن السلام كمظهر جمالي اجتماعي، مطلوب من المسلم أن يلقيه على من يلتقي به، عرفه أو لم يعرفه.. وإذا دخل بيتاً ألقى السلام على من فيه، فإذا لم يجد أحداً ألقى السلام على نفسه.. قال تعالى:

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة.. ﴾ (١) وإذا عطس حمد الله، وإذا تثاءب وضع يده على فمه..

إنه جمال ذاتي لا يراعي فيه وجود الناس فيكون تصنعاً أمامهم..

إنه الخط الواضح في هذه التربية، يعتني بالفرد فإذا المجتمع مجتمع فريد..

إنها آثار المنهج السليم، وقد آتى ثماره، بغض النظر عن الزمان أو المكان لأن محله نفس الإنسان.

* * *

هذه هي الحصيلة عندما يحكم المنهج.. وتلك هي الحصيلة عندما يغيب..

هذه هي الحصيلة حينما تكون تربية الإحساس بالجمال جزءاً من تربية منهجية عامة.

وتلك هي الحصيلة حينما تكون تربية الإحساس بالجمال، منفردة مقطوعة الصلة بالتربية الأم، وحينئذ تكون عضواً مبتوراً، فاقد الحياة والحيوية بل والحركة.

---

(١) سورة النور. الآية [٦١].
قال ابن كثير في تفسيرها: «قال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.. وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك».

الباب الرابع
لوحات جمالية



نشاهد في هذا الباب لوحات جمالية، صاغها المنهج نفسه، ولوحات أخرى صاغتها تربيته. فكانت الثانية من فيض الأولى.

وهذه وتلك نتاج متميز، قد تمتلك أمة ما، لوحة مشابهة أو قريبة منها، ولكنها لن تكون لوحاتها جميعاً من هذا المستوى الرفيع.

وهذه اللوحات من ميادين شتى، يجمعها الحسن ويربط بينها الجمال، ولكل ميدان جماله. وحسن كل شيء في كماله الذي يليق به، كما قال الغزالي رحمه الله.

لن تكون هذه اللوحات نتاج خط وريشة، ولا لون وتظليل. ولن يكون إبصارها بالعين.. ولا حسها باللمس.. لأن ذلك هو ميدان الحس، واللوحات الحسية هي الدرجة الأخيرة في التصنيف الجمالي.

إنها لوحات.. ترى بالقلوب وتحس بالمشاعر.. يحلق في أجوائها الخيال وهو في عالم من الحقيقة لا عالم من الخيال..

لوحات..
يعيشها القلب عبادة
ويعيشها الفكر تأملاً وصفاء
وتعيشها المشاعر أحاسيس رقيقة.

لوحات.. كشف المنهج عنها الستار فأضاءت بوهجها القلوب واستمدت الأعين من سناها مادة الإبصار، وسمعت فيها الأذن لحن الخلود.

إنها لوحات، تنتمي إلى مدرسة واحدة، وتستمد جمالها من معين واحد.

إنها تحمل ختماً واحداً وإن تعددت الموضوعات والأشكال. وتسجل الوحدة وإن تعددت الألوان والأصباغ.

إنها لوحات.. من مدرسة الإيمان.

(١)

«يسبح»

هل سمعت لحن «يسبح»؟
أم هل رأيت لوحة «يسجد»؟
حلّق بفكرك
وعش بقلبك
وانظر بعين بصيرتك
وأرهف سمع مشاعرك..
لنذهب رحلة في هذا الوجود..
نطوي الزمان والمكان
فإذا الكل تحت السمع والبصر
وإذا الكل يشدو نشيد الجلال
وإذا الكل بحمد الله «يسبح»
وإذا الكل لله «يسجد» (١)
إنه لحن الوجود
لحن يشترك في حسّه «الكل الإنساني» حين يكون في حالة من الحضور النفسي والقلبي والوجداني..
عندها.. أصغ بسمعك.. وانظر بقلبك..
إلى كل ما يحيط بك
وإلى كل ما يصل إليه بصرك
وإلى كل ما تلمسه يدك..

---

(١) قال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات، ومن في الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب..﴾ سورة الحج الآية ١٨.

إلى الإنسان صامتاً أو متكلماً
إلى الحيوان نائماً أو مستيقظاً
إلى النبات أخضر أو يابساً
إلى الجماد ساكناً أو متحركاً
إلى.. كل شيء..
إنك لو فعلت ذلك.. لسمعت..
ورأيت
ــ وتتحد هنا: سمعت ورأيت ــ
كلَّ الوجود يهمس في حس الزمان ذلك اللحن الخالد..
(وإن من شيء إلا يسبح).

تلك لوحة: ليست من عالم الأوهام، بل من عالم الحقيقة، وليست من عالم الخيال بل من عالم الواقع..

كم لفت القرآن إليها النظر
وكم خاطب فيها العقل.. علّه يعين البصر
فاسمع وأنصت.. علّك تفقه..
﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾(١).

بهذا تنبض «كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال «إنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب..

كل حصاة وكل حجر
وكل حبة وكل ورقة
كل زهرة وكل ثمرة
كل نبتة وكل شجرة

(١) سورة الاسراء الآية [٤٤].

كل حشرة وكل زاحفة
كل حيوان وكل إنسان
كل دابة على الأرض.. وكل سابحة في الماء والهواء
ومعها كل سكان السماء..
كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه
(وإن من شيء إلا يسبح بحمده) يسبح بطريقته ولغته..» [1].

وإذا كان الأمر كذلك.. (فسبح بحمد ربك) حتى لا تكون نشازاً في معزوفة الوجود، وحتى لا تكون أقل من بقية الأشياء.

* * *

تلك إطلالة سريعة ووقفة عابرة، أمام لوحة الكون كله وهو يؤدي حركة واحدة.. هي السجود.. وينشد نشيداً واحداً هو التسبيح.

لوحة كشف القرآن عنها الستار.. فأضحت ظاهرة لكل ذي لب ومن لم يتذوقها فقد حرم الحس كله.. ومن لم يعشها فقد هبط عن رتبة الأشياء وحرم الخير كله.

تناسق في الحركة بصاحبه تناسق في الأصوات، تشارك فيه الأرض والسماء، ومن في الأرض ومن في السماء.

ذلك هو الجمال.

وذاك هو الإحساس بالجمال.. أن يصبح سمعك قادراً على تذوق ذلك اللحن العظيم الذي تشارك فيه الموجودات، وأن يكون بصرك حديداً نافذاً يرى حركة السجود في كل شيء.

ومهما يكن من أمر، فلن يقبل منك أن تكون شاهداً أو منصتاً، ولا بد من أن تأخذ دورك في هذا الأداء.. فتكون من الساجدين .. لسانك رطب من ذكر الله [2]..

---

(١) في ظلال القرآن: في تفسير الآية السابقة.

(٢) جاء في الحديث (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله) رواه الترمذي وقال حديث حسن — كما جاء في رياض الصالحين —.

(٢)

الصلاة

وقال صاحبي: لقد طال وقوفك أمام هذه اللوحة. مع أنها لوحة عادية متداولة.

قلت: كثرة تداولها جعلنا نغفل عن الجمال الذي فيها، وكثيراً ما يذهب الإلف برواء الأشياء فينسى الذي يعايشها جمالها.

ــ ولكنك مكثت طويلاً!!

ــ لقد ذهب خيالي إلى اللوحات (التمهيدية) التي سبقت هذه اللوحة.

ــ وهل هناك لوحات تمهيدية؟

ــ اللوحات ذات القيمة الفنية والجمالية، لا يخطها الفنان مباشرة بل يسبقها الإعداد الكبير. من لوحات جزئية أو تخطيطات تجريبية يستعين بها الفنان حتى يصل إلى غاية ما يريد.

أما أتيح لك أن تزور ملحق متحف البرادو في مدريد.. هناك حيث استقرت لوحة «الجورنيكا» في القاعة الكبيرة، وفي الممر الذي يؤدي إليها وصفت اللوحات الأولية التي كانت السبيل إلى انتاج اللوحة. وهل تظن أن ليوناردو دافنشي أمسك بالفرشاة لينتج «الجونكدا» مباشرة.. وقد ظل في رسمها أربع سنوات!

ــ وأين تلك التمهيديات لهذه اللوحة؟

ــ إن اللوحة العظيمة لا تقتصر على حاسة البصر في مشاهدتها، بل تشارك جميع الحواس بعض الأحيان. وهذه اللوحة تحتاج أن تعطيها كل حواسك وفكرك حتى تصل إلى بعض ما فيها، مما تشاهده من الزاوية التي تقابلك.

ــ هلا وضحت ما تقول!

ـ أما تسمع يومياً ذلك النداء الندي، الذي ينطلق به ذلك الصوت الشجي الجميل، فإذا معاني الجمال يلتقي بعضها مع بعض، جمال الكلمة، وجمال المعنى، وجمال الصوت، فإذا بنا أمام ذلك اللحن العلوي الذي ما إن تسمعه الآذان حتى تنهض لتلبية النداء.

ـ الآن أدركت معنى الحديث (فإنه أندى منك صوتاً) فجمال الصوت ضروري إذن حتى يتم التناسق والانسجام.. ولكن ما علاقة ذلك النداء بهذه اللوحة؟!

ـ في تيار الحياة الصاخب، لا بد من وقفات على الطريق، تُلتقط فيها الأنفاس، وتستريح فيها النفوس، ولا أدعى إلى الراحة من صوت جميل، يحمل المعنى الجميل..

إنه لحن تمهيدي مهمته التنبيه، تنبيه المشاعر إلى ما هي مقدمة عليه، لتأخذ أهبتها..

ـ وأية أهبة تعني؟

ـ إنها الطهارة، الوضوء، هذا الغسل للأعضاء الظاهرة من الجسم الذي يذهب بالأدران والأوساخ، ففي أية لوحة لا بد من الابتعاد عن الأوساخ قبل التعامل مع الألوان.

ـ ولكن ما علاقة النداء بهذه الطهارة؟

ـ العلاقة وثيقة جداً، هناك ارتباط ذهني في نفس كل مسلم، بين (الله أكبر..) وبين (إذا قمتم إلى الصلاة..).

ذلك حتى تأخذ الأعضاء راحتها، حين نتخلص مما أصابها من كد الحياة وسعيها وقد خلف هذا التعب آثاره.. فإذا الماء ينساب عليها فيكسبها راحة باعثة على النشاط والحيوية، وإذا الراحة تعم النفس والجسد وتلك هي الأهبة..

ـ الآن بدأت أفهم معنى (الطهور وشطر الإيمان) إذن هو طهور حسي وآخر نفسي، فهو الشطر لأن الصلاة لا تصح إلا به، وهو الشطر أيضاً لأن الصلاة

عملان في آن واحد، طرح للدنيا ونظافة منها، وإقبال على الله، ولا بد من التفريغ قبل الملء..

ـ أجل، ولذا كانت (الطهور شطر الإيمان) قاعدة كلية، فلا بد لهذا الطهور من أن يشمل الثياب التي يلبسها الإنسان بعطفه ورعايته، ولا بد من طهارة المكان.. حتى يحصل التناسق.. وعندها يبدأ خط الجمال..

قال صاحبي: إني لست خبيراً بقراءة اللوحات، أفلا أخذت بيدي فأوضحت ما تقول!

قلت: ما نسمعه عن كيفية قراءة اللوحات.. ذلك أمر يتعلق بالفن الذي قطع علاقته بالجمال، فقطع بذلك علاقته مع أكثر المشاهدين، وأصبح له جمال خاص به أطلقوا عليه اسم الجمال الفني.. الذي يحتاج بدوره إلى خبرة ودربة واختصاص لأنه قد يكون جمالاً للقبح.

أما ـ هنا ـ فنحن أمام لوحات الفن الإسلامي، أو الجمال الاسلامي، فلا طلاسم ولا معميات، والأمر سهل ميسر، سمو في اللوحة ودنو من المشاهد. وتلك خاصية الجمال الأصيل الذي يدرك بالفطرة..

مثله في ذلك، مثل ذلك الكتاب العظيم.. سمو ورفعة فهو كلام الله تعالى.. وهو قريب في متناول الفهم لكل الناس.. يتعامل معه كل منهم بحسب فهمه وعلمه.. ولكن الفهم الأولي والضروري في متناول الجميع.

أنظر معي إلى صفاء الألوان.. إنها التفاعل مع (خذوا زينتكم) حيث يتحول الأمر إلى واقع، وذلك هو مدخل العبادة، وما العبادة إلا تنفيذ أمر أو اجتناب منهي عنه..

ـ أراك بدأت الحديث عن اللوحة، والآن أستطيع أن أتابع شرحك متتبعاً الخط واللون. فقد آن للحديث التمهيدي أن ينتهي.

ـ صحيح ذلك، ولكننا بحاجة إلى تغيير موقعنا من اللوحة فهناك تمهيديات أخرى لا نلمحها من هذا الموقع..

ـ وكيف؟

ـ تعال معي إلى هنا.. أنظر ذلك الإنسان الذي خرج من بيته بعد طهوره وأخذ زينته، كيف يمشي إلى الصلاة؟ إنه يمشي مشية فيها الحيوية والجد، يخالطها السكينة والوقار، إنها تتناسب مع ما هو ذاهب إليه، فلا رعونة ولا تماوت..

وذاك الذي جاء متأخراً.. إنه لم يحاول الإسراع.. لأنه يخل بالتناسق القائم بين السكينة والوقار المطلوب في القدوم إلى المسجد وبين الخشوع المطلوب في الصلاة.. وهو معنى الحديث الشريف ما أدركت فصل وما فاتك فأتم..

ـ قال صاحبي: أما آن للحديث عن اللوحة أن يبدأ؟

ـ قلت: أما اللوحة، فإن الجمال فيها يعانق بعضه بعضاً، فما أدري من أين أبدأ.

أنظر إلى تلك الدوائر من الصفوف وقد التفت حول البيت العتيق التفاف السوار بالمعصم، والخط الدائري هو أجمل الخطوط انسياباً، وأقواها تحملاً، وأشدها تماسكاً.. وهذه الصفات كلها عناصر جمالية رفيعة.

أضف إلى هذا، ذلك المعنى من المساواة في الدائرة إذ تكون جميع النقاط في مستوى واحد من حيث القوة والتحمل.. وهو معنى رفيع حرص الإسلام على إقامة النفوس عليه.

ـ ليتك توضح ما تقول، ما الفرق بين نقطة في خط مستقيم وبين نقطة في خط دائري؟

ـ من الثابت هندسياً أن نقاط السطح أو الخط المستقيم ليست في قوتها واحدة، فلو مثلنا بسطح غرفة لقلنا إن قوة النقطة مرتبطة طردياً بقربها من الجدار وتعد نقطة الوسط هي أضعف النقاط.. وليس الأمر كذلك في السطح حينما يكون قبة. إذ ليست نقطة الذروة في القبة هي أضعف هذه النقاط..

والأمر يحتاج إلى تفصيل، يخرج بنا عما نحن فيه.. إذ كل نقطة في سطح لها قوتان قوة تحمل وقوة شد...

ونعود إلى دائرتنا حول البيت المعمور فكل الأفراد فيها يسوي بينهم الإسلام حساً ومعنى، فهم وقوف بجانب بعضهم بغض النظر عن جميع الاعتبارات من لون

وصنعة ومكانة وفقر وغنى.. وتلك ذروة من ذرا الجمال الاجتماعي يحققها الإسلام في العبادة اليومية..

تلك صفات النقاط التي تشكل الدائرة..

ثم إن هذه الدوائر يلي بعضها بعضاً حتى تعم الأرض كلها. كل واحدة أكبر من التي قبلها بدءاً من نقطة المركز التي هي الكعبة المشرفة.

يا له من مشهد رائع الجمال، أن تشهد «في أوقات الصلاة المتغيرة بحسب خطوط الطول، فترى في كل حين جبهة ترتفع وأخرى تخر في تموج رائع من العبادة الخاشعة التي ما تنفك تغمر أرجاء الكرة الأرضية بأسرها» (١).

ـ حقاً إنها لوحة رائعة. بناء هندسي شديد التماسك، دوائر متتابعة، ذهب الجمال فيها كل مذهب، يبرزه خطان أوليان.. اتحاد حركي في أداء القيام والركوع والسجود.. وتتابع جميل بحسب اختلاف أوقات الصلاة تنشأ عنه حركة أخرى هي ذلك التموج العام فإذا الكل الإنساني المسلم يؤدي حركة الركوع والسجود وكأنه جسد واحد هنا قيام.. وهناك ركوع.. وهناك سجود ثم تبدأ الحركة من جديد .. لقد كان هذا العمل الجماعي على مستوى الكرة الأرضية غائباً عني..

ـ أجل: هذه الصورة الحسية في الشكل الهندسي، ليست هي كل شيء، بل هناك صورة نفسية أخرى تقابلها في هذا البناء الروحي.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أنعم النظر والفكر في القراءة التي لا بد لكل مصلٍ من تلاوتها في صلاته.. إنه يقرأ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم﴾ إنه دعاء يؤديه الفرد ولكنه يتكلم بلسان المجموع، إنه يقول: (نعبد.. نستعين.. اهدنا) هكذا بصيغة الجمع إنه لا يرى نفسه منفرداً، فهو جزء من كل، ونقطة من خط متماسك مترابط.. ولذا فهو يتكلم بلسان المجموع..

ومع هذا فهذه الجزئية ليست مكانية محصورة بزمن معين بل هي مستمرة عبر

---

(١) من محاضرة لـ(رجاء جارودي).

الزمان، مرتبطة بالماضي، ممتدة إلى المستقبل.. يؤكدها الاستمرار في لفظ (نعبد ونستعين..).

ـ إذن، هذا ما يطلقون عليه: التطابق بين الشكل والمضمون!

ـ إنه ليس تطابقاً، ولكنه وحدة بينهما، أو تناسق بلغ من قوته أن أصبح وحدة، فالمصلي يؤدي صلاته مشتملة على العمل الحركي الذي يقوم به الجسم، والعمل القولي الذي يقوم به اللسان والعمل الروحي الذي يقوم به القلب.. كل ذلك في عملية واحدة.. يراعى فيها المعنى الفردي والمعنى الجماعي..

ـ ليتك توضح ذلك.

ـ انظر إلى المصلين في المسجد، كل يصلي السنة منفرداً ثم يؤدي الفرض مع الجماعة. وفي الجماعة انضباط تام مع الإمام ومتابعة لكل حركة في حينها.. تناسق في الشكل.. وتلبية للجانب الفردي والجانب الجماعي..

ـ لقد فهمت من قولك أن هناك تناسقاً بين القول والحركة!

ـ نعم، إن المصلي يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، إن عظمة الله تعالى، أوجبت عليه أن يحني ظهره، اعترافاً بها وإقراراً لها.. وعندما يسجد يقول: سبحان ربي الأعلى. يقولها وهو في أخفض نقطة إنه تقابل وتوافق بين علو الله تعالى وانخفاض عبده الذي يصلي له.. ومع ذلك فهو في هذه الحالة أقرب ما يكون من ربه..

إنه لقاء بين معنى القول وبين معنى الحركة..

[وأذن المؤذن.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح].

ـ فقال صاحبي.. الصلاة.. الصلاة.

(٣)

العدل

العدل، أمر إآلهي، وهو غاية ومطلب، وقيمة من القيم العليا.

ذلك أمر متفق عليه، لا يختلف فيه الأفراد، كما لا تختلف عليه الأمم.

ولكن ما هو العدل؟ وبين من يكون؟

كل المجتمعات التي يحكمها النظام الطبقي قالت بالعدل. ولكن العدل عندها بين أفراد كل طبقة على حدة، أما العدل بين فرد من الطبقة الدنيا وبين فرد من الطبقة العليا، فذلك ـــ في نظرهم ـــ ليس من العدل في شيء بل هو محض الظلم.

ذلك هو شأن المجتمع الهندي والروماني واليوناني من قبله.. ولم تكن تلك نظرة عامة الناس بل هي نظرة المفكرين والفلاسفة أيضاً.

فقد ذهب أفلاطون في «جمهوريته» إلى تقسيم المواطنين إلى أحرار وعبيد وأجانب.

ويقرر أرسطو أن الله خلق فصيلتين من الناس: اليونان والبرابرة وقد زود الأولى بالعقل والإرادة والتقويم الكامل.. ولم يزود الثانية إلا بقوى الجسم وبناء على ذلك فإن على اليونانيين ـــ كما يقول أرسطو ـــ أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم.

وجاء الرومان فسلكوا الطريق نفسه.. وقام الرجل الروماني مقام الرجل اليوناني [١]..

وجاء الإسلام..

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الباب الثاني من الجزء الثاني من هذه الدراسة (ميادين الجمال).

جاء ليقيم العدل على أساس مجرد، بعيداً عن العواطف، بعيداً عن كل الروابط، إنه «العدل» يحقق في الأرض لأنه أمر إلهي، بغض النظر عن المتخاصمين.

ورأى الناس من المشاهد صوراً فريدة في تاريخ الإنسانية لم تعرفها في أزمانها المتعاقبة إلا من خلال التاريخ الإسلامي.

لقد جاء بالإسلام بالخلفاء والقادة.. إلى مجالس الحكم والقضاء.. فقد مثل علي رضي الله عنه وخصم له يهودي بين يدي أبي بن كعب. ومثل هارون الرشيد، وهو خليفه، بين يدي أبي يوسف، مع خصم له نصراني... وأمثلة وأمثلة..

هذا الأمر لم يتحقق في كل دول الأرض حتى في وقتنا الحاضر. فكل قوانين الدول تجعل لرئيس الدولة وضعاً خاصاً إذ تشكل له محكمة خاصة به.. مما يستبعد معه إحقاق أي حق..

لقد جعل الإسلام العدل أمراً في متناول الجميع.. ذلك أمر يعرفه القاصي والداني والعدو والصديق...

ومع هذا فإن فتوحات الإسلام تظل فريدة في كل ميدان، إذ استطاعت أن تصل دائماً إلى رتبة الكمال فتسجل أرقاماً قياسية، ليس في عصر واحد، بل على مر العصور.. إنها قمم شامخة.. ومعالم واضحة..

قد ينصف الإنسان من قريبه.. فذلك عدل
وقد ينصف من أخيه، فذلك عدل
وقد ينصف من نفسه فذلك عدل.

ولكن حكماً واحداً سجله التاريخ الإنساني، وما نظن أنه يتكرر إلا إذا دار الزمان دورته وعادت للإسلام دولته وسلطانه..

* * *

انطلق المسلمون يحملون دعوتهم إلى جميع الناس، فكانت فتوحاتهم اجتماعية وثقافية وتربوية قبل أن تكون عسكرية. ولذا لم تكن مهمة الجندي المسلم هي

حمل السلاح وحسب، وإنما هي العقيدة من خلال تطبيق عملي.. ولم تكن مهمته تعليم قيم، وإنما كانت بياناً عملياً لتطبيق هذه القيم..

ومع نهاية القرن الأول كان الفتح قد وصل إلى خوارزم وسمرقند وبخارى بقيادة قتيبة بن مسلم.

ودخل الفاتحون هذه البلدان والأقاليم، فاختلطوا بأهلها وتعاملوا معهم.. وتلك هي طريقة الفتح الإسلامي، فليس الفاتح طبقة متميزة.

وبدأ أهل سمرقند يختلطون بالفاتحين ويتعرفون على تعاليم هذا الدين.. وكان في جملة ما وصل إلى سمعهم أن للحرب نظاماً في هذا الدين. كان ذلك أمراً غريباً.. ومتى كان للحروب نظام وقانون..

ورجعت الذاكرة بهم إلى عهد قريب يوم فتحت بلدهم.. فإذا بهم يرون أن هذا النظام لم يطبق عليهم؟ فلمَ لا يطالبون بحقهم؟ أليس هذا الدين دين العدل كما يقول الفاتحون؟..

وبين الإقدام والإحجام، وفي حالة من التردد.. قابل بعض أهل سمرقند الوالي يومئذ، سليمان بن أبي السري، وقالوا: إن قتيبة ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا.. فأذن لنا بوفد يذهب إلى أمير المؤمنين..

وأذن لهم.. وكانت فرصة تعرفوا من خلالها على عمر بن عبد العزيز.. ورجعوا من عنده بكتاب إلى سليمان.. جاء فيه:

> إن أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم، حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرج الجند إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة (١).

كان الكتاب بأيديهم وهم بين مصدق ومكذب!! وإذا نصب القاضي ــ وهو من الفاتحين ــ فكيف يقضي لهم..

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٥٦٧-٥٦٨ حوادث سنة ١٠١ هـ والكامل ٤/١٦٢-١٦٣.

كان وفدهم يناقش هذه الأسئلة وغيرها وهو في طريق عودته من دمشق إلى سمرقند.

ووصل كتاب عمر إلى سليمان..

واختير القاضي لهذه الخصومة.. فكان، جميع بن حاضر الناجي..

وجلس المتخاصمون بين يديه.. كل يدلي بحجته..

وكانت الأدلة مؤيدة لأهل سمرقند..

وحكم القاضي.. أن يخرج الجند من سمرقند إلى معسكرهم..

وينابذوهم على سواء.. فيكون صلحاً جديداً.. أو ظفراً عنوة.. أو..

لم يسمع الحاضرون وحدهم حكم القاضي. وإنما سمعته أذن الزمان فسجلته لترويه للأجيال القادمة جيلاً بعد جيل.. إنه قضاء الإسلام .. وإنه حكم الإسلام.. وإنه عدل الإسلام.

فهل هناك ذروة تعلو هذه الذروة.

وهل هناك جمال يفوق هذا الجمال..

وهل تمتلك أمة ما لوحة تشبه هذه اللوحة أو تدانيها؟!

* * *

وكان الجند على وشك الخروج عندما طلب أهل سمرقند بقاءهم لأن هذه الخصومة بتسلسل أحداثها.. فتحت قلوبهم لهذا الدين، فلم يعد هناك من حاجة لخروج الجند.. فقد أصبح أهل سمرقند بعدها كتيبة من كتائبه..

وكان فتحاً آخر لسمرقند..

(٤)

مشاركة أكثر من وجدانية

ما يزال لإحساس بالجمال يرهف الحس، ويرتقي به حتى تصل النفس إلى درجة من الشفافية بحيث تنفذ إليها كل المشاعر وكل العواطف وكل الأحاسيس.

وعندها ترن النفس وتشف، وتصبح في هموم الناس، لا في همِّ ذاتها، وفي أفراحهم وليس في فرحها. فإذا هي عضو في جسد، وفرد في مجتمع، لا يعيش بذاته، بل يعيش بغيره ولغيره.. فحياة بقية الأعضاء حياة له وسعادتهم سعادة له وحزنهم حزنه.

يحدث ذلك عندما يرتقي الانسان إلى سمو الإسلام، فيعيش معانيه، فإذا هو معنى من هذا المعاني، وقد تجسدت على مسرح الحياة.. يحكي قبساً من معين من كان خلقه القرآن.

ذاك بعض ما ذهب إليه الفكر حين قرأت خبراً من أخبار بشر الحافي[1].

يقول الخبر: «نال بعضهم: دخلت على بشر بن الحارث في يوم شديد البرد، وقد تعرى من الثيٰاب، وهو ينتفض، فقلت: يا أبا نصر، الناس يزيدون في الثياب في مثل هذا اليوم، وأنت قد نقصت؟!

فقال: ذكرت لفقراء، وما هم فيه، ولم يكن لي ما أواسيهم به، فأردت أن

---

(١) هوبشر بن الحارث ن عبد الرحمن بن عطاء..
كان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين. أصله من مرو وسكن بغداد. وكان من أولاد الرؤساء والكتاب.
ولد سنة ١٥٠ هـ وتوفي سنة ٢٢٦ هـ.
[انظر في ترجمته: وفيات الأعيان ١/٢٧٤-٢٧٦].

أرافقهم بنفسي في مقاساة البرد»[1].

إن البرد الذي أصابه لم يكن ليخفف من برد الآخرين، ولكنه إعلان عن مشاركة تجاوزت العواطف إلى المشاركة الحسية، فإذا هو عضو من الجسد حقاً.

إن الأعضاء السليمة في الجسد، حينما يشتكي عضو ما، تشاركه تلك الأعضاء آلامه وسهره. إنها لا تخفف بذلك من ألم العضو شيئاً، ولكنه الإعلان عن المشاركة الفعالة حساً ومعنى.

قد يبدو هذا الإحساس أمراً سلبياً لا فائدة منه، ولكنه غاية في الايجابية. إنه المشاركة الوجدانية والعاطفية والحسية وتلك أعلى درجات المشاركة.

إنها لقاء مع ﴿كن أبا خيثمة﴾[2] وحينما يغيب من مشاعر المسلم.. (كن أبا خيثمة) فذلك هو الجفاف والجفاء والخواء.

---

(١) الرسالة القشيرية. باب الجود والسخاء.

(٢) بعد مضي جيش الإسلام إلى تبوك بقيادة الرسول ﷺ تخلف بعضهم ومن جملتهم أبو خيثمة.

ودخل أبو خيثمة بيته، بعد مضي الجيش، فنظر إلى امرأتيه وقد هيأتا له الطعام والماء البارد، فقال: رسول الله في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ، ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ. فارتحل ناضحه ثم خرج حتى أدركه حين نزل تبوك، فلما دنا، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: ﴿كن أبا خيثمة﴾فقالوا: يا رسول الله ﷺ، هو والله أبو خيثمة..

(٥)

درس في الحس الجمالي

كان السرادق مجهزاً بكل وسائل الراحة والزينة، فالأثاث الجميل والرياش والطنافس تحف به.. من كل جوانبه.

وهناك في صدر المجلس، جلس القائد على سرير مرتفع.. والناس بين يديه واقفون تعظيماً وتبجيلاً.

كل ما في المكان يؤكد تقسيم الناس إلى طبقات، وتحصل كل طبقة على الرفاهية بما يتناسب مع مكانتها.. كان ذلك واضحاً من اللباس الذي يرتديه كل فريق.. ومن سحن الوجوه وأشكالها.

كان بعضهم أرباباً.. وبعضهم عبيداً.

ودخل السرادق، غير مكترث بشيء.. لم يأخذه لمعان الحرير، ولا بريق الوشي الذهبي، ولم ترهبه تلك الهيبة المصطنعة.. ولم يبال بما حشد في ممره من مؤثرات نفسية.. من رجال وعتاد..

كان سيفه، على جنبه، ملفوفاً بخرقة، وكان رمحه في يده، يتوكأ عليه وهو في طريقه إلى صدر المجلس... كثيرة هي تلك الوسائد والطنافس التي حظيت بمداعبة الرمح لها.. فأحدث فيها فتحات تتنفس منها الصعداء.. كان حريصاً على أن يمهر كل تلك الأشياء بخاتم رمحه.. علّها تستيقظ من سباتها فتستنكر وجودها في غير مكانها..

كانت الدهشة على وجوه الجميع...

يا له من أعرابي لا يعرف للأشياء قيمتها، ولا يعرف الجمال إلى نفسه سبيلاً، ولا يقيم للذوق والأعراف وزناً. ولو عرف نفاسة تلك الأشياء لكان أكثر تقديراً

لها ولترفق بها فلم يلمسها بيده فضلاً عن أن يمزقها برمحه..

كان كل واحد من القوم يحدث نفسه بهذا الحديث.. وكان ينتهي إلى تلك النتيجة.. إنها فساد الذوق لدى هذا الأعرابي!!

* * *

ذلك جانب من مشهد ربعي بن عامر ــ سفير المسلمين ــ في سرادق الفرس قبل بدء معركة القادسية..

هل كان ربعي لا يدري القيم الجمالية.. فكان تصرفه تصرف من حرم الحس الجمالي؟

إن الجمال هو حصيلة علاقات من تناسق وتنظيم وتناسب وملاءمة .. فإذا توفرت أو توفر بعضها فثم جمال.. وإلا فلا..

إن ميدان الحرب الذي تزهق فيه الأرواح، وتمزق فيه الأجساد، ويتحول فيه الإنسان إلى أشلاء.. والذي كل ما فيه يعبر عن الخشونة والقسوة والشدة.. ويعني الجد في العمل والصبر على المكاره.. هذا الميدان لا يقبل الرفاهية، وليس معرضاً لوسائلها. إنها أشياء قد تكون جميلة بحد ذاتها ولكنها في هذا الموطن غير جميلة.

أليست الابتسامة مطلوبة على الشفاه (وتبسمك في وجه أخيك صدقة) ولكن هذه الابتسامة غير جميلة بل هي قبيحة إذا كانت في مأتم أو تعزية بفقيد.. لأنها في جو غير مناسب.. إنها القبح بعينه حينئذ.

إنه درس في الجمال يلقيه ربعي في سرادق الفرس. ودرس في الحكمة. والحكمة هي وضع الشيء في مكانه المناسب.

كان ربعي يقدر ما يدور في نفوس القوم. إذ كانوا يظنون بالمسلمين أنهم يركضون خلف المتاع.. فلما أتلف تلك الأشياء المغرية بالطمع عرفهم أن قصد المسلمين هو فوق هذا الحطام الزائل.. إنه درس في سمو المقصد ونبل الغاية.

أليس هذا هو الجمال؟!

* * *

واللوحة مليئة بعدُ بالمشاهد الجمالية التي نترك للمشاهد تلمسها والوقوف عليها. وهي من الظهور والوضوح بحيث لا تحتاج إلى دليل أو مرشد.

(٦)

مقياس جمالي

إن الحس الذي يربيه الإسلام حس مرهف، فهو شبيه بميزان الحرارة، يتأثر تأثراً مباشراً بالجو المحيط به.. وحين لا يسجل هذا الميزان الدرجات الدنيا.. فذلك دليل على الخلل الذي أصابه.. ولا يغرنا منه، أن يسجل الدرجات المرتفعة.

إن الادعاء العريض لا يستطيع أن يزيف الواقع ويغير الحقائق، ولكن كثيراً ما ينطلي الدجل على العامة، فيظنون الورم شحماً، والخبير لا يخدع بالمظاهر فهناك مقياس يرجع إليه لمعرفة الصحيح من البهرج.

ذاك ما حدث في عهد أبي يزيد البسطامي، حين عمت شهرة أحد الناس ونسب إلى الولاية، حيث جعل من نفسه مربياً للناس وشيخاً لهم، واتخذ من لباس الزهد جلباباً يستر به حرصه.. واغتر به الناس...

وأحب أبو يزيد أن يعرف حقيقة الرجل، فقال لواحد من أصحابه: قم حتى ننظر هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية.. فمضينا، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببزاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه.. وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه [(١)].

إنه لم يراع الآداب الصغيرة فكيف يستطيع استشعار الأمور الكبيرة.

إنه مقياس ولكنه مقياس جمالي.

(١) الرسالة القشيرية. في ترجمة أبي يزيد البسطامي.

قال صاحب وفيات الأعيان: أبو يزيد، طيفور بن عيسى الزاهد المشهور توفي سنة ٢٦١ هـ. والبسطامي: نسبة إلى بسطام بلدة مشهورة من أعمال خراسان من جهة العراق.

(٧)

«أمراء للبيع»

عنوان اختاره الرافعي لإحدى قصصه.

واختيار العنوان أمر مهم، فهو المادة التي تجذب القارىء وتشده، ثم هو بعد ذلك، إما أن يظل مشدوداً، وإما أن يفلت.. وذلك مرهون بمقدرة الكاتب ومهارته و إبداعه.

والرافعي واحد من أمراء البيان، الذين لا يحتاجون إلى إغراء القارىء، ذلك أن كلماته مضيئة بحد ذاتها، ما إن يلمحها المشاهد حتى ينجذب إليها، ثم ما تزال تصعد به وتحلق.. وإذا الصور والمعاني يتبع بعضها بعضاً شعراً، ترفع عن القافية لأن جرسه وموسيقاه أعلى من أن يخضع إلى الرتابة والحرف المكرور.

وما لنا؟ قد ذهب الحديث بنا، بعيداً عن العنوان، لنتحدث عن الرافعي علماً بأن هذا العنوان ليس من إبداع فكره ولا من وحي قلمه. إنه من صياغة العالم الفقيه العز بن عبد السلام.

إن العزَّ لم يكن بصدد صياغة قصة يفتش لها عن بنوان، كما لم يكن ممن يهتم بتنميق الألفاظ وانتقائها، فلم يعمل فكره في الاختيار، ولكنها العفوية النابعة من الواقع.

إنها مجرد كلمات كان العز ينادي بها في السوق في ذلك اليوم الذي قام فيه يبيع الأمراء في المزاد.

إنها الحقيقة، لا الخيال، والواقع لا الوهم.. فقد بيع الأمراء..!!

أما كيف حدث ذلك.. فهو ما نتركه لقلم الرافعي ليسجل لنا الخبر، فالمعنى العظيم ينبغي أن يكتب بقلم كبير.. وعندها تكون الكلمات قوالب للمعنى، فهي

ليست فضفاضة تشوهها المبالغات، وليست ضيقة، تعجز عن اتساع المعنى.. فإذا هي متمزقة لصغرها.

إنها لوحة، خطها العزّ واقعاً في الحياة، وجاء الرافعي فلفت النظر بقلمه إلى بعض مواطن الجمال فيها.

لوحة تأبى أن تدخل سوق المساومات، فهي ليست مما يباع ويشرى وليست مما يقتنى في المتاحف.. ثم يدخل عالم النسيان. ولكنها مشهد يستقر في القلوب وتخلده الأفئدة.

إنها خلاصة منهج صنع الرجال.. فصنعوها، لتكون مراكز إشعاع وإضاءة في تاريخ الإنسانية الطويل.

ونحن إذ نسوق هذه اللوحة تحت العنوان الذي اختاره الرافعي، فإنا نلفت النظر إلى أن الجمال كامن فيها، فهو في كل نقطة وكل خط وفي كل زاوية وكل ظل.. إنها بحاجة إلى التأمل ثم التأمل، والجمال لا يمل أبداً.

فإلى الرافعي قلماً، وإلى العز عملاً..

«...

وما معنى علماء الشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهراً بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور: تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها، فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً.

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نورٍ واحد لا يختلف؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور: يُظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير!

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفي، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة فهو معه في كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول؟

...

قال الإمام: وما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، فقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة، فلا يبالي هلك فيه أو عاش، إذ هو في الدم كالقلب: لا تناله يد صاحبه، ولا يد غيره، ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم، فكان تجرده من أوهام القوة لا تغلب، وانتزع خوف الدنيا من قلبه فغمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل في طباع الناس، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق في جنازته حين مرت تحت القلعة: الآن استقر أمري في الملك في، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج عليَّ لانتزع مني المملكة!

وكان سلطانه في دمشق الصالح إسماعيل، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر، فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً، فأتبعه الصالحُ بعضَ خواصه يتطلف به ويقول له: ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه، وأكثر مما كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده. فقال له الشيخ: يا مسكين! أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدي! أنتم في واد وأنا في واد!

ثم قدم إلى مصر في سنة ٦٣٩، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتَحَفَّى به وولاه خطابة مصر وقضاءها، وكان أيوب ملكاً شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء، وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم، وهم معرفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر. فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه، فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم: يا أيوب! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر، فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه.

فحدثني الباجي قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر، فقلت: يا سيدي، كيف كانت الحال؟

قال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به.

قلت: أما خفته؟

قالت: يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامي كالقط. ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيته الدنيا كلها، بيد أني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء، ولا دنيا، بل هو لا شيء في صورة شيء.

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر، فإذا أمرناهم، فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان، وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها، فما بد أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها؛ فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى، فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت.

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها، فيكون باطلاً مزوَّراً في صورة الحق، وههنا تكون الذات مع الذات، فيخشع الضعف أمام القوة، ويذل الفقر بين يدي الغني، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها، فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف!

كلا يا ولدي! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها، فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير، وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذي فيها إذا هي لم تخزه؟

إن العالم الحق كالمسمار؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة.

قال الإمام تقي الدين: وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس، وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة، إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها، ففكر شيخنا في هؤلاء الأمراء وقال: إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد؛ إذ يحسبون كل حسن منها هو

الحسن، وإن كان قبيحاً في ذاته ولا أقبح منه، ويرون كل قبيح عندها هو القبيح، وإن كان حسناً ولا أحسن منه.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هما عماد الفرد الكبير، فلكل جزء من هذا الكل حقه وكله، وكان ينبغي أن تكون هذه الإمارة أعمالاً نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها في الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس.

وفكر الشيخ، فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك، فحكم الرق مُسْتَصْحَبٌ عليهم لبيت مال المسلمين، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق!!

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم، ثم احتدم الأمراء وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضي ابن عبد السلام.

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء، ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي!

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه؛ ويتحملون عليه بالشفاعات، وهو مصرٌّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم، ولا يخشى اتسامه بعداوتهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فأرسل إليه، فلم يتحول عن رأيه وحكمه.

واستشنع السلطان فعله، وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه، وهم وافرون وفي أيديهم القوة ولهم الأمر والنهي.

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه، وأزمع الهجرة من مصر، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام. فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد حتى طار الخبر في القاهرة، ففزع الناس وتبعوه لا يختلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي، وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون، كأن خروجه خروج نبي من بين المؤمنين به؛ واستعلنت قوة الشرع في مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير، فقيل للسلطان: إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك.

فارتاع السلطان، فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة، وأطلق له أن يأمر بما شاء، وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ولبس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائر.

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجتمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة في بيعهم، وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم في هذا الرقيق الغالي!!

* * *

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه، فلم يعبأ الشيخ به، فهاج هائجه وقال: كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض؟ وما الذي يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه؟ إنه يفقد ما لا يملك، ويفقد غير الموجود، فلا جرم لا يبالي ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأي لا يمر في منافعه، ولا في شهواته، ولا في أطماعه، كالذين نراهم من علماء الدنيا، أما والله لأضربنه بسيفي هذا، فما يموت رأيه وهو حي.

ثم ركب النائب في عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب، فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى، فانقلب إلى أبيه وقال له: انج بنفسك، إنه الموت، وإنه السيف، وإنه وإنه..

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير، بل قال له: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله.

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت، فليس فيه الإنساني بل الإلهي، ونظر إلى نائب السلطنة وفي يده السيف، فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها.

وتناوله بروحه القوية، فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ.

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له، ثم قال: يا سيدي، ما تصنع بنا؟

قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم.

ــ وفيم تصرف ثمننا؟
ــ في مصالح المسلمين.
ــ ومن يقبضه؟
ــ أنا.

وكان الشرع هو الذي يقول (أنا) فتم للشيخ ما أراد. ونادى على الأمراء واحداً واحداً، واشتط في ثمنهم، لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ، وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه..

ودُمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التي أعلنها الشرع:

أمراء للبيع.. أمراء للبيع...

الخاتمة



نصل مع هذه النماذج إلى نهاية هذا الجزء، بل إلى نهاية هذه الدراسة.

وقد تم لنا ــ بحمد الله تعالى ــ من خلال الأجزاء الثلاثة رسم مخطط متكامل للظاهرة الجمالية في الإسلام. وهي دراسة جديدة في بابها، أمكن بها الكشف عن القواعد العامة، كما تم ربط الفروع بالأصول.. كل ذلك مع ربط لهذه الظاهرة بالمنهج ربطاً كاملاً.

فقد أثبتنا في الجزء الأول، أن الجمال حقيقة قائمة في أصل الخلق، وأن رصيده في النفس الإنسانية كبير، وأنه دليل من أدلة العقيدة، ينساب إلى النفس دون عوائق، وأنه ظاهرة عامة شاملة تدخل ميدان الظاهر والباطن والشكل والمضمون، ثم حددنا السمات الأساسية للجمال وخلصنا بعد ذلك إلى وضع «التصور الكلي للظاهرة الجمالية».

وبهذا كان مدار الجزء الأول هو البرهان على وجود الظاهرة، وبيان أصالتها، وارتباطها الوثيق بالمنهج.

وكان الجزء الثاني تطبيقاً لقواعد هذه الظاهرة في الميادين الثلاثة: الطبيعة والإنسان والفن.

وكان التطبيق منهجياً، لم يجنح إلى الخيال، ولم يذهب إلى سفسطة القول. كما كان في الوقت نفسه دراسة مقارنة يستطيع القارىء من خلالها تكوين فكرة عن الفارق الكبير بين «ظاهرة الإسلام الجمالية» الأصيلة، وبين «علم الجمال» الملفق الذي لا يستند إلى قيم صحيحة أو أصول ثابتة على الأقل.

وكان الجزء الثالث بياناً للجانب الجمالي في التربية الإسلامية، فكان استكمالاً للظاهرة وبرهاناً على عمومها وشمولها.

وبما أن هذه الدراسة ــ بهذا الشكل المتكامل ــ هي محاولة أولى في هذا

الباب، فربما جانبها الصواب بعض الأحيان.. وربما ستر النسيان بعض الجوانب فلم يتناولها البحث.. وربما.. ولكن فتح الطريق أمر شاق، وجهد كبير.

ولا يسعنا في نهاية المطاف إلا أن نشكر الله تعالى أن وفق إلى إنجاز هذا العمل الذي يسد فراغاً في بابه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجـــع

١ ـــ أبعاد متطورة للفكر التربوي — تأليف نبيه يس — الناشر: مكتبة الخانجي بمصر

٢ ـــ الإحساس بالجمال — تأليف سانتيانا — ترجمة محمد مصطفى بدوي

٣ ـــ إحياء علوم الدين — أبو حامد الغزالي — طبعة دار المعرفة ـــ بيروت

٤ ـــ الاستقامة — أحمد بن عبد الحليم بن تيمية — تحقيق د. محمد رشاد سالم ط ١

٥ ـــ أصول التربية الإسلامية — سعد جنيدل

٦ ـــ الإنسان ذلك المجهول — تأليف: الكسيس كاريل — ترجمة شفيق أسعد فريد

٧ ـــ التذوق الفني — تأليف د. حمدي خميس — توزيع دار المعارف بمصر

٨ ـــ التربية الأخلاقية الإسلامية — مقداد يالجن — الناشر: مكتبة الخانجي بمصر

٩ ـــ التربية عن طريق الفن — تأليف: هربرت ريد — ترجمة عبد العزيز جاويد

١٠ ـــ تفسير القرآن العظيم — الحافظ ابن كثير الدمشقي

١١ ـــ التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان — د. عبد المحسن صالح — سلسلة عالم المعرفة

١٢ ـــ جامع الأصول — ابن الأثير الجزري — تحقيق عبد القادر الأرناؤوط

١٣ ــ الجامع لأحكام القرآن — الإمام القرطبي

١٤ ــ روضة المحبين ونزهة المشتاقين — ابن قيم الجوزية

١٥ ــ زاد المعاد — ابن قيم الجوزية
تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط

١٦ ــ سنن ابن ماجه — ابن ماجه

١٧ ــ سنن أبي داود — أبو داود

١٨ ــ سنن الترمذي — الترمذي

١٩ ــ سنن النسائي — النسائي

٢٠ ــ شمس العرب تسطع على الغرب — زنغريد هونكه

٢١ ــ صحيح مسلم — الإمام مسلم
ترقيم وفهرسة محمد فؤاد عبد الباقي

٢٢ ــ الظاهرة الجمالية في الإسلام — صالح أحمد الشامي
الناشر: المكتب الإسلامي

٢٣ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري — الحافظ ابن حجر العسقلاني
رقم أبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي

٢٤ ــ الفتح الرباني (ترتيب المسند) — أحمد عبد الرحمن البنا

٢٥ ــ فصول في علم الجمال — عبد الرؤوف برجاوي

٢٦ ــ الفضائل الخلقية في الإسلام — أحمد عبد الرحمن إبراهيم

٢٧ ــ فقه السنة — سيد سابق

٢٨ ــ فلسفة الجمال — محمد علي أبو ريان

٢٩ ــ الفن الإسلامي التزام وابداع — صالح أحمد الشامي
(تحت الطبع)

٣٠ ــ الفوائد — ابن قيم الجوزية
دار النفائس ــ بيروت

٣١ ــ في ظلال القرآن — سيد قطب

٣٢ ــ القيم الحضارية في رسالة الإسلام — محمد فتحي عثمان
الدار السعودية للنشر ط ١

٣٣ ــ المدخل إلى علم الجمال	هيغل ترجمة جورج طرابيشي
٣٤ ــ مسند الإمام أحمد	
٣٥ ــ منهج التربية الإسلامية	محمد قطب
٣٦ ــ ميادين الجمال	صالح أحمد الشامي (تحت الطبع)

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الباب الثاني : التشريعات الجمالية في المنهج الإسلامي

القسم الأول : جماليات الظاهر

الصفحة

الصفحة

الباب الثالث : الإحساس بالجمال

الباب الرابع : لوحات جمالية

الصفحة